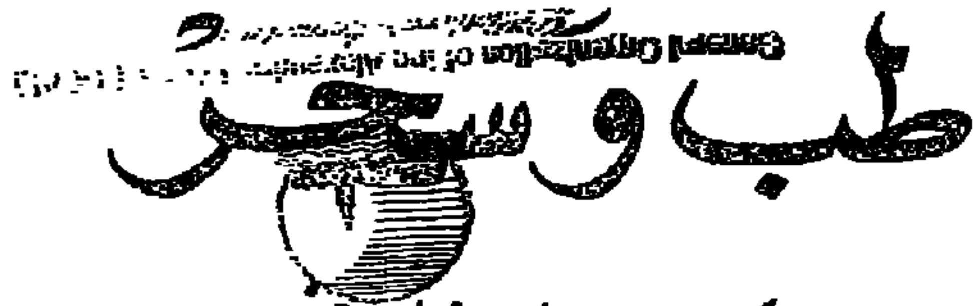
المكتبة الثقافية
٥



الدكتور بول غليونجي
الأستاذ بكلية طب جامعة عين شمس

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإقليم الجنوبي
الإدارة العامة للثقافة

الناشر

دار القلم
١٨ شارع سوق التوفيقية

مكتبة النهضة
٩ شارع عـــدلى

بالقــاهرة

تقديم

قد نخطىء إذا ظننا أن الإيمان بالسحر — وما إليه من الأشياء التي ينكرها العقل ويعدها من الخرافات — نبت في ذهن الإنسان نتيجة للصدفة أو الارتجال ، ويكفي أن هذه الظاهرات سايرته آلافاً من السنين وأنها ما تزال تسيطر على نواح كثيرة من سلوكه اليومي ، وهذا دليل على أنها استمدت أصولها من إملاء قلوب السلف استجابة لحاجتهم الاضطرارية إلى المعرفة ، أو تخيل المعرفة ، ليتغلبوا على القلق الأزلي الذي كان ينتابهم في خضم الكون ومخاطره .

وقد اختلفت طبيعة تلك الاستجابة باختلاف صور العالم التي صورتها لهم معارفهم وأوهامهم في مختلف الحقب والبيئات .

ولعل الإنسان أول ما وعى لم يميز بين نفسه ومحيطه ، فخيل إليه أنه مجرد عضو من جسم عالمي فيه كل محتويات الكون ، وهو — كالجسم الآدمي — متضامن الأعضاء يعين بعضها بعضاً ، حتى إنه يمكن ، بحكم تضامنه الكامل مع العالم ، تحريكه وفق إرادته إذا ما عرف سر تلك الروابط .

تلك الفكرة ، وهى أن الإنسان يملك سلطاناً على القوى الخارجية يعرف كيف يديرها على نحوٍ ما ، هى أساس السحر .

ولقد كانت مرحلته التالية فى تطور تفكيره وفى محاولته تفسير مظاهر الكون ، أن عزا إلى كل الكائنات روحا خاصة وأسند إليها إرادة ذاتية وتصور أنها دائبة التدخل فى حياته اليومية . . . ثم ألّهها كلها كما ألّه كل ما كان يجهله ويخشاه ، وهذا ما يسمى الروحانية (animism) .

وخطا بعد ذلك خطوة أخرى ، عندما اختار إلها من بين مجموعة الكائنات المؤلّهة ، ليكون لأسرته حامياً ورمزاً وعلماً ورباً فى وقت واحد ، وعده أرومة سلالته . وهكذا نشأت الديانات التوتمية (totemism) التى اتخذت حيوانا إلهاً للقبيلة ، فحرمت أكله ، أو نهراً فحظرت الاستحمام فيه ، أو شجرا أو كهفا أو جبلا أو بركانا ... فنهت عن الاقتراب منه اللهمّ إلا إذا عرف من يعتدى على حرمة هذا المحرّم وسائل إبعاد اللعنة ، وفى تلك الحال كان الحرام يتحول إلى قداسة واللعنة إلى بركة ، وتحل روح الإله فيه ، فيضحى آكل لحم هذا الحيوان ، أو المستحم فى مياه ذلك النهر ، مستوعبا إياه ، عاثلا له ، بل يصبح هو الإله ، ولذا فإن معرفة تلك الطرائق كانت تعد — بطبيعة

الحال — من أخطر الأسرار ، ولا سبيل إليها لغير الكهنة والسحرة وأشراف القبيلة .

وفى مصر سلك الدين تلك الطريق ، ويعتقد علماء أصول الإنسان أن الأصل فى تسمية كل مقاطعة باسم حيوان ، تلك العادةالتى استمر الأخذ بها طوال تاريخ مصر القديمة ، يرجع إلى تأليه القبائل التى كانت تحتمى هذا الحيوان أو ذاك ؛ فكانت أسيوط تحتمى الذئب ، والمنيا تحتمى الأرنب ... الخ .

وعندما تكتلت القبائل المجاورة أو المتجانسة ، تحت ضغط مقتضيات السياسة أو المنفعة ، ونشأت منها إمارات ودول ، رأى أصحاب السلطان أن الحكمة تقضى باحتفاظ كل قبيلة بآلهتها ، وأن تعترف الدولة بالآلهة المحلية ، بعد تنصيب إله القبيلة الحاكمة إلهاً فوق الآلهة ، ورفعه إلى مستوى إله الكون . وكان لهذا الإجراء سبب سياسى هام ، هو أن الملك كان يعتبر حفيد الإله وممثله على الأرض ، فكان يتحتم أن يكون إلهه رب الأرباب الأخر .

وظهرت فيما بعد بين الكهنة النابهين نزعة فلسفية كونية عزت إلى كل إله معنًى كونيا ، وجعلت من الإله الأول خالقاً الكون ، ومن الآلهة الأخرى أتباعاً ، أو رعايا له ، أو رموزاً لبعض

صفاته ، أو ممثلين لبعض أشكاله ، وأدمجتهم فى نظرية عامة للكون . وأصبحت الأساطير الفردية فى أساطير عامة ، تتحدث عن علاقات الآلهة بعضهم ببعض ، ومنازعاتهم على السلطان ، فى شكل وقائع تاريخية ، زعمت أنها جرت فى عصر سحيق ، حكم الآلهة فى غضونه البشر على الأرض . ولا شك فى أن تلك الأساطير بنيت على أسس تاريخية تقليدية ، وإن صعب أحياناً تخليصها مما حاكه حولها — على مر الأجيال — خيال الشعب الخصب ، وتأملات الكهنة الفلسفية .

الأسس النفسية للإيمان بالسحر :

أسهبنا بعض الإسهاب فى تتبع مراحل التفكير البشرى فى الكون ، لأن السحر فى كل عصر بنى عليه ، واصطبغ بصبغته ، وابتكر أساليبه تبعاً لذلك ، وأملى قواعد الحياة الاجتماعية وفقاً لمقتضيات هذا التفكير .

والآن ، يمكن حصر مقومات السحر فى ثلاث ، هى :

أولا : الاعتقاد بوجود قوة خفية — لا شخصية ولا مادية — تنظم العالم ، وأن تلك القوة التى سميت أحياناً « مانا » يمكن للساحر أن يأسرها فى جسده ، ثم يحلها بدوره فى جسد

غيره ؛ وأن يسخرها بصفة عامة لأغراضه عن طريق وسائل معينة .

ثانياً : المنطق الكاذب الذى يستقرئ من القياس السطحى ، المثل من المثل ، والذى يرى روابط بين الشىء وشبهه ، وبين الشىء واسمه ، كأن يعتقد أن أى عمل أتى بنتيجة فى الماضى سوف يأتى حتما بمثلها فى المستقبل ، وأن اسم الإنسان يحدد مصيره ، وأن العقار إذا شابه عضواً فإنه يشفى آلام هذا العضو ، وأن خواص الأرقام والأشكال الهندسية ، تكسبها صفات ملائمة . ومن أمثلة ذلك التفكير ، الاعتقاد بأن صب الماء على الأرض ، يسقط المطر . وأن إلحاق أى أذى بنموذج يسبب مثله فى الأصل ، وأن يوماً من الأسبوع وقعت فيه كارثة يظل شؤماً فى المستقبل ... الخ ...

وما تزال كثرتنا ، ولا يزال من المثقفين أنفسهم ، من يؤمن بخواص رقمى ١٣ أو ٧ ، أو يتشاءم من السفر يوم الجمعة ، أو لا يتحدث عن مرض إلا مسبوقاً بعبارة « عدوك » أو « بره وبعيد » بل يتحاشى التلفظ بأسماء الأمراض القاضية كالسرطان ، ويكنى عنها « بالمرض الملعون » أو بكناية أخرى ، ولا يقدم على عمل إلا تضرع قبله بالدعوات . ولست أقول إن

الابتهال إلى الله تعالى ضرب من ضروب السحر ، ولكنى أعنى أن الباعث النفسى الذى يملى هـذا التضرع إلى إنسان القرن العشرين هو الشعور القهرى نفسه الذى كان يوعز بتلاوة التعاويذ فى العصور النائية ، إذ أن الإيمان بالأصنام أو بالأرواح كان فى ذلك الوقت ، فى مثل قوة إيماننا اليوم بالله ورسله ، فضلا عن أن حاجة الإنسان إلى سند علوى هى من الظواهر الباقية .

ثالثاً : عدم إدراك الإنسان لفكرة الموت ردحا طويلا من الزمن — كما هى الحال حتى وقتنا هذا — لدى كثير من القبائل ، وعدم تمييزه بين الموت والحياة ، وتخيله أنه نوم طويل يعيش المتوفى فى أثنائه عيشة الأحياء . ويقوم بأعماله المعتادة حتى بواجباته الزوجية (كما قام بها أوزيريس بعد موته فأنجب من زوجته إيزيس إبنهما حورس) . وأنه يستيقظ أحياناً فيزور الأحياء طيفاً فى أثناء نومهم ، وشبحا أو رؤيا فى أثناء اليقظة ، ويطالبهم بحقوقه وأمـــلاكه . ومن هنا نشأ الإيمان بالأحلام والأشباح ، وتقديم الأطعمة والملابس ، بل الخدم والزوجات للمتوفين ، وعمليات السحر لإعادة الحياة إلى ما كان يحيط بهم فى كهوفهم ، لتهيئة أسباب الراحة والترف لهم ، بغية استرضائهم

والحيد بهم عن فكرة العودة ، بل يذهب بعض إلى القول بأن ركام القبور (Tumulus) الذى تحول فيما بعد إلى « الشاهد » كان الغرض من وضعه على القبور فى أول الأمر زيادة الثقل على الميت للحيلولة بينه وبين مغادرة قبره .



أركان العمل السحري الثلاثة

يقوم العمل السحري على ثلاثة أركان هي : التعاويذ والطقوس ، وشخصية الساحر .

١ — التعويذة :

هي الصيغة اللفظية التي يتلوها سادن السحر عند القيام بخدمته . وكيفما كان شأنها لدى بدء استعمالها فإنها — منذ عهد التاريخ بها — اتصفت دائماً بالجمود وعدم القابلية للتحول ، وقد عدّوها أهم أركان السحر ومركز القوة الفعالة فيه ؛ وتلك القوة منحصرة في صيغتها اللفظية ، تنطلق معها من فم المتكلم غير مبالية بشخصيته ولا بالمعوّذ له ، سالكة طريقاً ذاتية لا عودة منها حتى بإرادة قائلها ، وهاتان الخاصتان — أي عدم ارتباط التعويذة بالأشخاص ، أو بنية القائل لها واستحالة تغيير خط سيرها إذا ما انطلقت — جليّتان : الأولى في رواية يعقوب ، الذي بارك ابنه الأصغر إسحق وهو يتوهم مباركة بكره ، ولم يسعه بعد ذلك العدول عنها ، والثانية في نبوءة أشعيا (٥٥ : ١١) « ... كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إلى فارغة بل تعمل ما سررت به وتبتهج فيما أرسلتها له » .

والغالب أن إسناد قوة ذاتية للألفاظ نشأ عندما بدأ الإنسان يتكلم ، ففطن إلى قوة الأصوات الجديدة وقيمة نغمة النطق ، وهايبها فى غيره ، مثال ذلك أن لعنة المجهول ما تزال مرهوبة ، وأننا ما زلنا نغتبط بدعائه لنا . وقديماً كان الملوك يهابون الشعراء ، وخاصة من برع منهم فى الهجاء وثلم العرض .

وقد عم الاعتقاد — لدى القدماء — بأن الكلمة لها حياة خاصة ، والكلمة التى تصور المدلول أصبحت بالقياس فى الفكر البدائى هى المدلول ذاته ، فترى السومريين يضفون عليها شخصية معنوية ويسيرة بين الذات والصفة . وترى البابليين يقولون إنه لا وجود لغير مسمى ، ويعبرون عن حدث حصل قبل خلق السماء والأرض بأنه حدث والأرض والسماء لم يسميا بعد . وبالتالى فإن معرفة اسم الشخص تعد امتلاكا له وتكسب سلطاناً عليه (إنى أعرف اسمك ... آلست أعرف اسمك ؟) ولذا فقد كان اسم فرعون يكتم ولا تذكر فى المتون إلا ألقابه ، بل اسم الله تعالى كان محرماً على اليهود ذكره أو معرفته ، وقد جاء فى « العهد القديم » إن الله تعالى أخفى اسمه عن إبراهيم وإسحق ويعقوب ولم يذكره إلا لموسى : « وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأنى الإله القادر على كل شىء ، وأما باسمى (يهوه) فلم أعرف عندهم » (سفر الخروج :

٣،٦) . ومن مظاهر قوة الإسم أن ذكره كان — لدى قدماء المصريين — يضمن الحياة ، وترديده يعيدها . فقد ورد في رسالة شستريتي السادسة « إن اسماً يذكر على لسان بشر مفيد في القبر : إن الإسم هو الذي يحي ، وإعادة أسماء الموتى على ألسن الأحياء يضمن لهم استمرار الحياة . »

وقد تأثرت فلسفة أفلاطون بمثل هذه النظرة فأعارت للكلمة (Logos) أهمية قصوى انعكست في مستهل رسالة يوحنا : « في البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت عند الله ، وكانت الكلمة الله » . كما أن اللغة استعارت هذه النظرة في كثير من الأحوال . يسهل علينا إذاً أن نتفهم كيف أسندت إلى كلمة الإله وإلى إسمه قوة فذة تقهر كل مقاومة ، إذ أن الإله — تبعا لتلك الفكرة — موجود فعلاً في كلمته وفي إسمه ، وأن كلمته واسمه هما إياه ، وأن من يتكلم باسم الإله يصبح هو الإله .

هذا هو السر الذي جعل لمنطوق التعاويذ والصلوات قيمة تعلو مدلولها ، والذي أوجب الالتزام بشكلها وبطريقة ترتيلها الموروثين دون أي انحراف ، إذ أن أقل تعديل فيهما كان يغير من طبيعتها ويفقدها فاعليتها ، بل كان يودي — تبعاً لعقائد بعض

القبائل — حياة من أخطأ إلقاءها ، ولذا فإن منطوق التعاويذ لم يتغير على مر القرون ، بل إن بعضها فى مصر كان ما يزال يلقى بلغة أجنبية (فى بردى لندن مثلا) لأنها كانت دخيلة ، أو لأنها كانت تستخدم ضد أرواح أجنبية . وللسبب نفسه فإنها — عموماً — احتفظت بتراكيب لفظيـة عتيقة وبألفاظ مهجورة ؛ وذلك القدم فى التركيب ، والغرابة فى التعبير ، مع السجع والتوقيع يكسوان التعاويذ ثوباً من الشاعرية والغموض يزيد فى روعتها وفى قوة إثارتها .

وكان مدلول التعويذة يشير دائماً إلى الغاية المطلوبة، إما بالتشبيه أو بالاستعارة ،أو بتوافق الأصوات أو بسرد حوادث مماثلةمن تواريخ الآلهة .

وكثيراً ما كانت تخضع تلاوتها لتقاليد مستمدة من خواص الأرقام السحرية (٣ ، ٤ ، ٧) أو كانت تقترن بالتسبيح على العقد المربوطة على الحبال أو الأقمشة ، أو باستعمال النبيذ أو الزيوت أو الماء المقدس ، أو بطقوس أخرى .

٢ — حركات السحر :

هى حركات معينة يقوم بها الساحر أو الكاهن فى أثناء عمله ،

وهى عادة تصحب تلاوة التعاويذ وتعززها ، وإن كانت فى بعض الأحيان تشكل الركن الأساسى فى السحر . وهى مبنية على القياس ، أى على العقيدة بأن قوة الساحر أو « المانا » تحوّل الشبه إلى حقيقة . وهى متنوعة ، فإما أن تستخدم الحركة وسيلة للتعويذة لتنقلها إلى المعوّذ له ، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلاً ، كأن يقلد الساحر حركة الماء المتموجة بيده ، أو ينفخ ليرمز عن الهواء ...، أو يمثل قصة من تاريخ الآلهة تتصل بموضوع العمل ، أو معركة مع القوى الشريرة تنتهى بقهرها ... ألخ ...

وكانوا يستعينون ببعض المواد فى أثناء هذا الدور ، كأن يصب الماء لإسقاط المطر ، أو تحرق الصور لإلحاق الأذى بأصحابها. وكانت تلك المواد تختار لخواصها الطبيعية ، أو لفوائد مزعومة استنتجت بالقياس الرمزى من صفاتها أو أصولها أو شكلها . ومن تلك المواد عقاقير قوية تحدث انفعالات فى نفس من يستعملها كالوسوسة والتخيلات البصرية، وتهيجات وتغيرات فى الشخصية تشبه الهستريا، يؤولها المشاهدون بأنها نتيجة لحلول القوى أو الأرواح بالساحر ، وكان تناول تلك المواد محرماً فى كثير من الأحيان على الجمهور ، بل كانت معرفتها وطرق تحضيرها تحاط بالسرية التامة .

ولارتباط حركات السحر بفاعليتها ، وبالعقيدة التى نشأت بأن الأمانة فى إجراتها هى العامل المقيد للقوى التى يبتغى تسخيرها ، أحيطت تلك الإجراءات بالدقة والجمود اللذين كانا يحددان كيفية تلاوة التعاويذ .

٣ — شخصية الساحر :

ومع أن قوة السحر كانت فى متناول كل من عرف أساليبه ، وأن فاعليته كانت مبنية على صورته الشكلية فقط . فإنه كان يعطى أهمية كبيرة لشخصية القائمين به ، وذلك نظرا لخطورة القوى التى كان يسيطر عليها ، والتى كانت تنصبه سلطانا على السلطان . ولذا فإن اختياره كان يحتاج إلى تريث ، وكان يخضع لقواعد دقيقة ، فكان يختار المرشح منذ طفولته على أساس أن يكون من سلالة الساحر ، أو أن تقترن أفلاك مناسبة ساعة ميلاده ، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه ، أو أن يصاب بأحد الأمراض المقدسة : كالصرع أو الهستريا ، أو أن تكون أعجوبة قد وقعت له فى حياته ، أو أن يكون موضوع حلم . . الخ . ولا يزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات فى انتخاب أئمتهم .

على أن المرشح كان يربّى تربية خاصة ، معزولا عن بقية

القبيلة ، محاطا بحواجز من المحرمات التى تتناول طعامه وهندامه وعلاقاته الجنسية ، ومن الالتزمات التى كانت فى بعض الحضارات تصل إلى حد تحريم كشف وجهه وإلزامه ارتداء قناع. وقد كان عقاب مخالفة تلك الفروض صارماً يودى بقوى الساحر الروحية وأحيانا بحياته .

وليس ثمة شك فى أن تلك العزلة القاسية كان ينفرد بها الساحر، وتلك الفروض الجبارة التى كان يدفعها ثمنا لما وُهب به من مقدرة، كانت تقوّى ملكاته ، وتلهب حواسه ؛ وتزيد فى عقيدته العميقة بأنه امتاز عن إخوته ، وتدعم إيمان هؤلاء بأن الآلهة اختصته بهبات فريدة .

والحالة الساحر النفسية وزن يعدل حالته الجسمية ، فقد كان يمتاز بحساسية مرهفة تقرب من الهستريا .. ولما لم تكن التعويذة فى أول أمرها — حسب اعتقاد البعض — إلا صمام أمن للرغبة الشديدة الكامنة فى نفس المتلفظ بها ، تخيل له تحقيق رغبته ، وأن الحركة السحرية لم يكن أساسها إلا إيهام النفس بحصول الحدث المرغوب عن طريق القيام بمثله ، فإن العمل السحرى اتصف بالعنف فى اللفظ والفعل ، وكان يشعر من يأتى به أنه تحرر من قوة طاغية، بينما مازال من حوله يرضخ لها ، كما يتحرر

(المربوح) فى الزار وقتيا من الوسواس المسيطر عليه والذى يخاله من عمل العفاريت .

ولذا فقد كان الساحر — فى أثناء عملياته — يشد أعصابه بالإيحاء والعقاقير حتى تصل إلى درجة من الهياج والتوتر ، فتصدر عنه حركات زائغة وألفاظ عنيفة قد لا يكون لها معنى ، ويمثل دوره تمثيلا جائرا وحشيا ، كما يمثله اليوم (الكودية) ورواد الزار الملبوسون (والمربوحون) ومن إليهم .



هل للسحر قيمة اجتماعية

نحن لا نستغرب استمرار الإيمان بأثر السحر وبقاء بعض مراسمه — على الرغم من ازدهار حضارتنا المبنية على نزعة تجريبية تعقلية دقيقة . ولهذا البقاء عدة أسباب مهمة تستمد غذاءها من جذور متغلغلة فى صميم قلوبنا فى نواح منها ، منعزلة تماما عن تلك التى يتحكم فيها العقل والمنطق . وهذا العزل هو سبب التناقض الظاهر فى وجود ضربين مختلفين من التفكير يسيران جنباً إلى جنب فى العصر نفسه ، بل فى الذهن نفسه . ذلك أن الإنسان واجه على مر التاريخ نوعين مختلفين من الظروف، أحدهما قابل للتكهن والاستقرار ، كالأجواء ومواسم الزراعة والفيضان وتأثير أنواع الطعام والشراب وكل العوامل الخارجية كجروح السيوف والرماح والفؤوس ، وثانيهما لم يَرَ له سبباً بادئ ذي بدء — كالرعد والقحط والأوبئة والسكتة ونوبات الصرع والزلازل — فلم يسعه إخضاعها لقانون ، وافترض لها أسباباً خفية . فواجه النوع الأول بالوسائل التى أملتها عليه خبرته واستنتجها عقـله المنطق ، ثم أخضع تلك الوسائل إلى التصحيح بالملاحظة والتجربة ، وأضاف إليها الملاحظات

على مر الزمن ، وزادها دقة فى الوصف وتعمقاً فى التحليل ؛ أما الثانية فظلت عالماً مغلقاً مبنياً على الخبرة التصوفية لا على البرهان التجريبي أو المنطق وعالجها بما كانت توحيه إليه عقائده وأحاسيسه ، فتقدمت أولى الوسيلتين وكوّنت العلم ، بينما تجمدت الثانية وأصبحت ما نسميه بالسحر .

وقد ساعدت على رسوخ العقيدة بالسحر أسباب أخرى لا تقل أهمية عن الأولى ، وهى تتصل بشخصية الساحر وبطبيعة الإنسان ، وبالقواعد التى كان يحيا المجتمع البدائى منه .

أما الساحر فكان يمتاز دائماً بقسط كبير من الحذق الاجتماعى والدهاء السياسى والمهارة فى انتهاز الفرص للقيام بأعماله ، كأن يسند فترة القحط إلى غضب الآلهة ، ويفرض ما يفرضه على الشعب لإرضائها ، ثم لا يقوم بالطقوس التى يزعم إسقاط المطر بها إلا عندما يجد أن حالة الجو تنبىء به .

وفيما يخص طبيعة الإنسان فإنها تتوق دائماً إلى العجائب ، وتحب التوغل فيما وراء الطبيعة ، وتؤثر عند النظر فى قضية ما أن تأخذ بعوامل روحانية مُغفلةً الأسباب المادية ، وتتمسك بحالات فردية أتى السحر فيها بنتيجة مردها إلى الصدفة ، وتنسى آلاف الحالات التى منى فيها بالإخفاق ، هذا بالإضافة

إلى حاجة الإنسان الدائمة إلى عون من فوق ، والإيمان بتوفر هذا العون هو أساس الأديان ، كما أن الشك فيه أدى إلى فلسفة اليأس والتشاؤم التى تجمعت أخيراً فى المدرسة الوجودية .

وهذا الإيمان بالسحر أكسبه قوة اجتماعية قصوى ، إذ أن المؤمن به يعتقد أنه يمكنه ، إما بنفسه أو بالالتجاء إلى وسيط — هو الساحر أو « الشيخة » ، « أو الكودية » — فرض إرادته على تلك القوى المخيفة التى تحوم حوله ، الأمر الذى من شأنه إزالة القلق الكونى وتحقيق اتزان فى الحياة العاطفية ، وهذا هو أساس النزعة الطقسية (ritualism) . المغروسة — كثيراً أو قليلا — فى كل منا ، والتى ترغمنا — برغم أنفنا — على إجراء بعض الحركات (الأتوماتيكية) كالتسبيح أو إشعال السيجارة ، أو التلفظ ببعض التوسلات عند الإقدام على أى عمل ، تخفيفاً لتوتر أعصابنا .

وكما يقاس السحر بدوافعه ، يقاس أيضاً بثماره . فإن السحر فى العالم القديم حل محل قوانيننا ولوائحنا الحالية ، بفرض سنن سنّها حكماء القبيلة ، فوضع للطعام والشراب والنشاط الزراعى ومواسم القنص ، وتربية الأولاد . . الخ . . قوانين ، مع فارق

هام هو أنه اعتمد على الرعب من الأرواح ، بينما ترتكن اليوم على الوعى الاجتماعى .

ولاشك فى أن بعض الفروض والتحريمات كانت مبنية فى كثير من الأحوال على الخبرة والتجربة ، ولكنها فى حالات أخرى كان ضررها أكبر من نفعها ، وربما رجع هذا إلى فارق آخر بين السحر ، وهو جامد لايقبل التغيير ، وبين العلم الذى تتغير أسسه كلما قام البرهان على خطئها .

بقى أن نقول إن هذا الحكم على السحر يبدو أقسى مما يجب ، لوجود ظاهرات لاشك فيها ، يستعصى درجها فيما هو معروف للعلم ، وتلك الظاهرات فُسِّرت بأنها نتيجـــة : إما التلفيق والدجل ، وإما لتخيلات وهمية مردها إلى الإيحاء ، وإما لأفعال قوى طبيعية ما نزال نجهل كنهها ومداها .

وتلك القوى — التى تأتى بنتائج تبدو كأنها من ثمـار عوامل متَّسمة بالذكاء وحرية الإرادة — هى موضوع علم المتابسكولوجيا أو عـــلم « ما وراء النفس » الذى يدرس قضاياها بالطرق الإحصائية والعلمية نفسها التى تتوخاها العلوم التجريبية المعهودة .

وقد أوصت الأديان السماوية بالابتعاد عن تلك الأعمال ، وأسندتها إلى أشخاص وأرواح شريرة أو إلى الشياطين التى

لا يمكن للإنسان العادى تمييزها عن الأرواح الخيّرة ، وقالت بأن تلك الأرواح قد تسخّر لإسقام السليم أو لإلحاق الأذى بشخصه كما قالت إنه يمكن ــ إذا ماعرفت تلك الشياطين ــ طردها بتسليط من هو أقوى منها عليها ، واعتبرت تلك الأفعال كفرا يعاقب عليه « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » (من سورة الجن) ، وقالت إن أنجح الوسائل لمحاربتها هى الإيمان بالله والاستعاذة به . وربما كان هذا تعريفا أساسيا للسحر يميزه عن الدين ، وهو أن السحر يوسط الأرواح المؤذية ، بينما الدين يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع بأوليائه ، فهو ــ دون مرية ــ أقوى منه ويفوقه مقدرةً ، كما قضى ما صنعه موسى على سحر فرعون .



الطب اللاهوتي

اختلافه عن السحر وتشبهه به

اختلف أساليب الطب اللاهوتي عن أساليب السحر في الجوهر وإن شابهتها في الشكل. ذلك أن السحر يدعي سلطانا مباشراً على قوى العالم، بينما أن الطب اللاهوتي يلجأ إلى تلك القوى المجسمة في آلهته متوسلا إليها أن تحقق مطالبه.

ولكن الطرق التي اتبعها الطب اللاهوتي كانت، أحيانا، شديدة الشبه بتلك التي يمارسها الساحر قبله، وهذا لأسباب عدة: منها أن الطب اللاهوتي انحدر عن الطب السحري انحداراً طبيعيا أدى إلى مسايرة المذاهب الجديدة للعقائد العتيقة ردحا طويلا من الزمن، بل إلى بقاء شوائب من السحر في الأديان التي تبعته، وإلى العقيدة في فاعلية الأسلوبين، بل إلى احتفاظ الكهنة بألقابهم السحرية إلى جانب ألقابهم الكهنية.

ومما أكد فاعلية السحر عند جمهرة الناس أن الكتب السماوية ذكرته وزخرت بقصص منه. فقد ذكرت أن موسى مارسه، وتحدثت عن شجرة الخلد التي كانت - حسب تفسيرها اللفظي في التوراة - تكسب آكلي ثمارها الخلود

كأن هذه الهبة مرتبطة بالثمار فلم يكن بد من أن يقصى الله آدم من الجنة خوفاً من أن يأكلها فيصبح مثله (التوراة)

وقد استغل الكهنة تلك الملابسات ، وشجعوا الناس على الإيمان بتلك العقائد ، وكتموا أسرار طقوسه رغبة منهم فى احتكار طرائق التوسل إلى الآلهة ، واقتبسوا أساليبه فى خدمتهم الدينية ، مما جعل التفرقة بين الدين والسحر من الصعوبة بمكان ، لأنهما متداخلان كل منهما فى الآخر . وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بينهما ، فقال البعض إن الدين هو العقيدة ، والسحر هو الطقس ، إلا أن ديناً لا يرسم لمعتنقيه خط السير فى الحياة لا يسمى دينا ولا يزيد على كونه نظرية فلسفية خالصة . وقال البعض الآخر إن الإنسان — فى بدء إيمانه بالآلهة — كان يسلك إحدى طريقين : الأولى محاولة الإستعانة بهم كان يستعين بهم الساحر ، وهذا النوع من الخدمة اللاهوتية ، الذى لم يختلف عن السحر لا فى جوهره ولا فى شكله ، هو الذى ساد الفكر الدينى فى عصر الفراعنة ، وقد اكتسبت الطقوس الخاصة بهذا النوع من العبادة جمود الوسائل السحرية نفسها ، واصطحبتها تلك الحركات وذلك الارتباط بالأرقام .. الخ .. أما الطريقة الثانية فجوهرها قبول سلطان الآلهة ثم مساومتهم بقبول الفروض

الخلقية وواجبات العبادة ثمنا لما يطلب منهم من حماية ورعاية . وربما كان هـــذا الاختلاف فى الموقف هو الفيصل الحقيق بين السحر والدين .

أما التعريف الثالث — الذى ذكرناه — وهو أن السحر يستمد تأثيره من قوى مؤذية ، بينما الدين يتوسل إلى الله ويستشفع بأوليائه ، فإنه ينقل كل الأديان الوثنية إلى حظيرة السحر ، وهذا ما لا يمكن قبوله ، لأن بعضها ارتفع إلى منسوب روحانى عال ، ولم ير فى الأصنام إلا رموزاً لمعان شعرت بوجودها وإن لم تقدر لها المعرفة الكاملة .

اختلاط الآلهة بالسحر فى الطب الفرعونى

عاصرت مصر الفرعونية مرحلة عبادة الآلهة ، وإن نظر المثقفون من قدماء المصريين إلى الأصنام كصور لمعان أكثر سمواً ، أو حسبوها رموزاً لأركان الكون ، وإن جرت من جانبهم محاولات جريئة ترمى إلى التوحيد ، فإن الشعب ظل يعبد عدداً لا حصر له من الآلهة الثانوية . ولذا فإن أغلب السحر والطب السحرى فى مصر القديمة كان من النوع اللاهوتى أو الكهنى .

إلا ان المصريين لم يفردوا للطب إلهـا ، كما فصل الإغريق باسقلابيوس ، وإن ذكروا بعض الآلهـة في سيرة الأمراض والأطباء ، ورَد هذا في سياق الكلام عنهم ، على أنه جزء يسير من مجموعة أساطيرهم وأعمالهم ، لا يرتبط بصفاتهم العامة أو باختصاصاتهم الرئيسة إلا عن طريق الصدفة أو القياس .

وقد وضعوا على رأس الآلهة «تحوت» ، وسموه «القيّاس» - أى الذى يقيس - إذ أنهم عزوا إليه اختراع العلوم المضبوطة والرياضة والأدب والفنون والعلوم السرية وأسس الدين ، ونسبوا إليه تأليف الكتب المقدسة (ومنها الأجزاء الاثنان والأربعون التى ذكرها كليمان الإسكندرى) ، واختراع الصيغ السحرية الشافية ؛ وكان فى السحر لايقل تضلعاً عن إيزيس ذاتها ، وقد صوره على شكل طير أبيس (أبو قردان) أو على شكل إنسان رأس « إيبيس » ، مكلل بهلال القمر وقرص الشمس ، ممسك بفرع نخلة أو بالقلم واللوح ، وقال عنه الإغريق فيما بعد إنههو ذاته إلههم « هرميس » مثلث القوى .

ومن الاختراعات التى نسبوها إليه الحقنة الشرجية ، لزعمهم أن طير الإيبيس يتجه إلى الشواطىء ، ويملأ منقاره ماءً ، ثم يدخله فى الشرج فيحقن فيه الماء لغسله ، والمرجح أن هذه الملاحظة غير صحيحة .

أما إيزيس مثال الأنوثة والأمومة ، فإنهـا بعد أن قتل «سيث» زوجها «أوزيريس» وأخفى جسده ، كابدت متاعب مبرحة بحثا عنه بمساعدة أختها نفتيس حتى عثرت عليه في «بيلوس» في لبنان ،وأنجبت منه طفلا ، وبما أن الرمزية المصرية كانت تعد كل متوفى أوزيريس ، فإنهم كانوا يتوسلون بها لإعادة الصحة إلى المرضى ، وقد مثلت في أسطورة «رع» دور الساحرة ، وسميت أيضا بالساحرة الكبرى .

وبالمثل فإن سيث قاتل أخيه كان رمزا لكل روح شريرة ، ونظر إليه كناشر الأمراض والأوبئة .

ومن التطورات العجيبة في التفكير الديني أن «سخمت» — ذات رأس اللبؤة المكلل بالشمس والكوبرا ، الإلهة المحبة للدم ، هادمة الجنس البشرى في أسطورة إبادة البشر ، وزوجة «بتاح» ، وأم «نفرتوم» و «إحوتب» فيما بعد — تحولت في نظرهم فأصبحت إلهة لآلام البشر ، ومثلت على هذه الصورة على جدران من معبد «ساحورع» الجنزى (الأسرة الخامسة) في أبى صير ، وأصبحت تلك الصورة التى اشتهرت بصنع المعجزات موضع عبادة شعبية . وانتشرت عبادة «سخمت» وأسستها المصليات في المعابد في مصر بأجمعها في وقت مبكر وقام بشعائرها كهنوت منظم (أوابو) يتصل

بالمرضى وله دستوره الخاص ، ويعمل وسيطا بين جمهرة طلاب الشفاء وبين الآلهة ، مجردا عن أى اختصاص طبي بالمعنى الفنى للكلمة ، إلا أن الجمهور — بعد وقت ما — نسب إليه قوى «سخمت» الشافية ومعجزاتها ، فقام الكهنة عندئذ بشفاء المرضى بوحى مباشر من الإلهة ، وكانوا ممن يعرفون النبض .

وهناك — غير أولئك — أشخاص جمعوا بين صفتى الطبيب وكاهن سخمت ، منهم : ون — نفر (أو نوفريس) ، كاهن سخمت والطبيب المفتش ، و (إيرى نختى) ، رئيس الكهنة وطبيب السراى ، و (هير يشفنخت) رئيس كهنة سخمت ، ورئيس السحرة وطبيب الملك .

وفى أثناء هذا التطور انتظم كهنوت سخمت على شكل هرمى ، فنجد من بينهم كهنة سخمت (أوابو سخمت) ، ثم رؤساء هؤلاء الكهنة وبينهم اثنان اتهموا فى مؤامرة ضد رمسيس الثالث ، وفوقهم رئيس كهنة سخمت فى مصر قاطبة ، مثل « سوم تو تفنخت » الذى نال بمهارته الطبية حظوة عدد من الملوك الذين حكموا مصر فى هذا الوقت ، وكان قد خلف خاله رئيس كهنة « سخمت » فى الجنوب والشمال فى هذا المنصب .

أما أطباء الرمد فكانوا فى رعاية تحوت الذى شفى حوريس

بعد أن مزقه سيث الشرير إلى أربع وستين قطعة ، وكذلك فى رعاية آمون الذى كان يلقب أحيانا « بالطبيب الذى يشفى العيون بغير دواء » ، أو « آمون مفتح العينين » ، أو « شافى الحَول » .

ولكن الإله الذى اختص بأمراض العيون كان (دواو) . وكان مركز عبادته فى عين شمس الحالية (إيونو) وكانت صورته عليها الشارة التى تميزه . وقد ظهرت تلك الشارة كذلك فى الكتابة الهيروغليفية لألقاب بعض كهنته ، مثلا : « نى عنخ دواو » (الحياة ملك لدواو) وكانت كثرة أطباء الرمد من الكهنة المتصلين به ، أمثال (ميدونفرى) . إلا أن حوريس انتقل فى العصور المتأخرة من مركزه فى دمنهور إلى إيونو ، فحل محل «دواو» وأصبح إله أمراض العيون بدلاً منه ، ثم انتقل حورس من عين شمس عبر النيل إلى ليتوبوليس (وهى أوسيم الحالية) وسمى هناك (حوريس مختى إيرتى) أى حوريس صاحب الوجه ذى العينين .

والظاهر أن العلاقة الوطيدة بين « دواو » و«حورس» فى عين شمس وجارهم (مختى إيرتى) ، والمتعلقة بعلاج العيون ، مبنية على علاقة وردت فى الأساطير ، حيث روى أن حورس أعطى

عينا من البلور الصخرى (كوارتز) إلى هذا الإله عندما فقد بصره.

ورأوا فى (نيث) حامية للوالدات والأطباء ، وكانوا يصورونها دائما فى صورهم للولادة معينة للنساء فى أثنائها ، وكانت تعبد فى معبد سايس وتمثل باللبؤة ، وكان فى مقدورها أن تنفث هواء الطاعون من الصحراء ، وأن تبعد الشياطين فى أثناء النوم.

كان المرضى إذن يتوسلون إلى (آمون) أو (سخمت) أو (من) أو غيرهم من الآلهة دون أن يشعروا بالحاجة إلى إله للطب . ولكن الشعب فى عهد البطالمة ، رفع إلى هذه المرتبة رجلا اشتهر منذ أقدم العصور ، وهو إمحوتب ، الذى شيد أول هرم ، والذى كان — قبل الميلاد بثلاثين قرناً — مستشاراً سياسيا ومهندسا معماريا ، ولعله كان طبيبا لأحد ملوك الأسرة الثالثة (زوسير) ، والذى عده الشعب بطلا منذ القرن السادس ق.م ثم ألهه الإغريق تحت اسم «ايموثيس» وقالوا إنه اسقلابيوس .

نظرة المصريين المزدوجة إلى المرض والطب :

سايرت نظرة المصريين إلى المرض الازدواج بين النزعتين الدينية والتجريبية الغريزتين فى طبيعتهم ، فقد كانوا يؤمنون بأن الجسم يولد صحيحا ، ولا يمرض ولا يموت إلا نتيجة تأثير خارج

عنه. فإذا رأوا للمرض سببا ، مثل الجروح أو الديدان أو الإكثار من الطعام ، عرفوه وعالجوه بطرق تميزها الخبرة ودقة الملاحظة ، وتبتعد كل البعد عن الشعوذة والسحر ، وإن أشركوها بالطرق الأخرى فى كثير من الأحوال ، لأنها لا تختلف فى جوهرها عن طرقنا العلمية الحديثة ؛ أما إذا كان سبب المرض غير مرئى فإنهم كانوا ينسبونه إلى عوامل خفية . ولجهلهم بالميكروبات أو بالاستكشافات الكيماوية الحديثة لم يجدوا سبيلا غير نسبتها إلى أسباب خفية ، إذ كانت فى فطرتهم الموروثة من قديم الزمن انتقام الموتى أو عمل الأرواح الشريرة أو عقاب الآلهة ، فكان يتحتم عليهم محاربتها بالوسائل التى تلائمها . وهى التوسل بروح أقوى أو الالتجاء إلى أعمال السحر المبنية على المبادئ التى وصفناها فيما سبق .

وسائل الطب الروحانى :

وكانت وسائلهم فى هذا مختلفة الأنواع ، منها الأساليب السحرية المحضة ، كالطلاسم والأحجبة والتعاويذ واستعمال المواد الغريبة ، كشعر التيس وروث فرس البحر والتمساح . . . الخ ، وهذا إما لدلالات تلك المواد

الرمزية ،أو بغية نقل المرض أو الصحة من عضو المريض إلى عضو حيوان أو بالعكس . ومن أمثلة نقل المرض أن توضع عين الخنزير فى أذن المكفوف لإعادة البصر إليـه مع تلاوة هذه التعويذة : « ذهبت للبحث عن (هذا) الذى ينبغى وضعه محـل (ذاك) لاستبدال ألم فادح » (إبرس ٣٥٦) . والمفروض أن هذا الإجراء يستبدل عين الكفيف بعين الخنزير وهى عين سليمة . ومن الأمثلة الأخرى كذلك تصف الرأس المتألم برأس سمك (نار) مقلى فى الزيت لنقل الألم من رأس المريض إلى رأس السمك .. إلا أننا قلما نجد تلك الأساليب مستعملة بمفردها ، بل تقابلها فى العادة أساليب روحانية أو لاهوتية .

وتتخذ الأساليب اللاهوتية أحد الأشكال الآتية :

(ا) فقد تنظر إلى المرض على أنه من فعل روح شريرة دخلت الجسم ، وفى هذه الحال يركز السحر عليها إما بالأمر ، حين يقال لها مثلا : « أخرجى ياكاسرة العظام ، يامتسللة إلى الشرايين » ، أو حين يقال للمرض « أخرج مع البصاق ، أخرج مع القىء ... » ، أو بادعاء عدم الإذعان إلى الروح الضارة : « أحضرت لتقبيل هذا الطفل ؟ . لا ، فلن أرخص

لك بتقبيله .. » « أأتيت لإصابته بضر ؟ .. لا ، فلن أبيح لك بأن تنزل به ضرا .. » « أأقبلت لتأخذه معك ؟ .. لا . فلن آذن لك باصطحابه .. » إنى أحضرت لك دواء من العسل وهذا ما يأتيك بالشر ، ومن البصل وهذا ما يأتيك بالضر .. عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مرّ للأموات » ، أو بذكر اسم المرض كأن يقال « إنى أعرف اسمك . ألست أعرف اسمك ؟ » وكانت معرفة الأسماء تمنح لمن يعرفها قوة التحكم على أصحابها كما رأينا من قبل .. أو بالتحايل إذا شك الساحر فى معرفته لاسم المرض فيصيح : « أأنت خادم ... فلتخرج فى القىء ... أأنت نبيل ؟ فلتتسرب فى البول .. أو بتهديد الروح المؤذنة بالشر أو الأذى : « أيتها الروح — أذكرا كنت أو أنثى — إختفى ياساكنة لحى هذا . أخرجى من لحى هذا .. أخرجى من أعضائى هذه .. لقد أحضرت لك هذه الفضلات لتأكليها .. فاحترسى ياخفية واهربى .. » أو بادعاء الصحة والمناعة عن المرض كأن يقال : « إنى سليم .. كيف أصاب وأنا سليم البدن ؟ لقد شاهدت الكارثة الفادحة ولكنها لم تصبنى بأذى ، أنا الذى خرجت من هذه الكارثة سليما معافى » .

(ب) وقد تكون تلك الأساليب مبنية على الالتجاء إلى الآلهة

لطلب تدخلها فى الأمر ، إما بأن تطالب صراحة بطرد الأرواح الشريرة .. « السلام عليك يا حورس يأيها الموجود فى بلد المئات ياحاد القرنين ، يابالغ الهدف ، إنى قصدتك لأمدح جمالك .. ألا فلتقض على الشيطان الذى يتملك جسدى » أو بأن تنتحل ذات الإله كما ورد فى التعويذة الآتية : « اغربوا ياشياطين المرض لن يصيبنى الهواء .. إننى حورس الذى يمضى فى طريقه أمام سخمت .. أنا ابن بستيت الوحيد ، ولن أموت بسببك » . أو أن يمنح كل عضو من أعضاء المريض صفة إله من الآلهة .. « إن قمة رأسك هى رع ، وقفاك هو أوزيريس ، أذناك حيتان ، ذراعك حورس ، سرتك نجم الصباح ، وإنما كل عضو فيه إله ، وكل إله يحمى اسمك ، وكل ما فيك .. » ونرى أهمية معرفة الاسم فى الفقرة : « وكل إله يحمى إسمك » . ولاغرابة فى منح كل عضو صفة إله ، فقد كانت هنالك نظرية تشريحية سادت الفكر الطبى حتى القرون الوسطى ، تقول بأن لكل عضو علاقة بفلك وعنصر ومعدن ... الخ .. ومن العجيب أن أثر هذه الرمزية لايزال باقيا حتى اليوم فى أسماء أجزاء الجسم .. ومثال ذلك جبل الزهرة ، وفقرة أطلس ...

وإلى هذا فقد كانت هناك رقى تعتمد على روايات شفاء بعض

الآلهة التي وردت في الأساطير ، فتحاول إعادة أحداثها ، أو تبنى على القياس الزائف ، فمثلا لإيقاف نزف الحيض كان يقال : « أتى أنوبيس ليمنع النيل من دخول المعبد حتى يحمى من كان بداخله » وفي ذلك تشبيه الحيض بفيضان النيل ؛ أو كالتعويذة التالية التي كانت تذكر على شكل حوار لعلاج الحروق : «الرسول: ابنك حوريس يحترق على الهضبة » إيزيس : هل هناك ماء ؟ الرسول : لا يوجد هناك ماء — إيزيس : عندى ماء في فمي ونيل بين فخذى ، لقد حضرت لإطفاء النار » ، وهذه التعويذة كانت تقرأ على مزيج من لبن امرأة أنجبت طفلا ذكرا ، وصمغ وشعر تيس يوضع على الحرق .

أما طرائق استعمال التعاويذ فكانت متباينة ، فمنها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج ، ومنها التي كانت تتلى في أثناء تحضير الدواء ، فتضيف إلى تأثيره ، أو تضفى على محتوياته صفة الدواء[1].

---

(١) كانت الصيغة الآتية تتلى على صفراء سلحفاة في أثناء مزجها بالعسل لصنع مرهم يوضع على الجفن لعلاج السحابة (إيبرس ٣٢٠) ، « هناك ضوضاء في سماء الجنوب منذ غروب الليل ، وزوابع في سماء الشمال ·· وقع كوم من الرؤوس المقطوعة في الماء ·· من يستردها ؟ لقد استرددتها .. وقد ==

ومنها التى كانت تتلى على الشخص المعوَّذ ، أو على (حجاب) مكون من قماش أو خيط معقود أو ريش رخم أو شعر حيوان ... الخ ، وهذا الحجاب هو الذى كان يحمل قوة التعويذة فينقلها من الساحر إلى المريض ، دون استخدام دواء ما .

ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر ، عند ما كان يرتل التعويذة ، كان يتكلم بلسان الإله تارة ، والساحر الآمر طورا ، والمريض أحياناً .

= أعدتها إلى أماكنها .. لقد ربطت فقرات رقابكم .. لتبعدوا أذى الإله أو الميت أو الميتة »

وجاء ذكر صفراء السمك فى العهد القديم فى قصة طوبيا (١١ ، ١٣ إلى ١٥) التى تروى أن ملكا أعطى طوبيا صفراء سمكة لإزالة السحاب الذى أظلم نظر أبيه

أقدم كتب الطب فى العالم

لفائف البردى الطبية

عندما أفاق المصريون من السبات العميق الذى كان دفعهم إليه الهكسوس الجهلة ، نشأت طبقة وسطى مثقفة فى غضون الامبراطورية المتوسطة أتيحت لها الفرص التى كانت حتى هذا الحين وقفاً على الكهنة والأمراء ، فبدأت تتلمس فى ماضى مصر المجيد أساساً لبناء مستقبل جدير بها . وقد انقضى على بناء الهرم الأكبر أكثر مما انقضى بين فتح الإسكندر لمصر ويومنا هذا ، ورحلت أسماء مِنا وإمحوتب وخوفو إلى عالم الأساطير (بينما أن حرب طرواده ووقائع الإلياذة والإوديسة وقعت بعد ذلك العهد بحوالى ثلاثة قرون) ، فعكف الفراعنة والأثرياء والمثقفون على جمع القراطيس القديمة ، وكلفوا النساخين فى « بيوت الحياة » (التى سيأتى شرحها فيما بعد) بنقلها . وأغلب لفائف البردى الطبية التى كشفت إلى اليوم ترجع إما إلى هذه النهضة الثانية — التى ازدهرت فى غضونها فنونها وحضارتها من الهند إلى أواسط إفريقية — وإما إلى العصر الذى سبقها بقليل .

واستجلاء هذا الأمر من الصعوبة بمكان ، لأن اللفائف التى فى أيدينا ليست إلا نسخاً متخلفة من أصول قديمة استنسخ الكتاب منها ما وقع فى أيديهم ، كاملا أو منقوصاً ، حتى الأجزاء الممزقة منها مهما كان اختلاف المواضع التى تناولتها ، تباعاً على لفافة البردى نفسها حسب ورود الأجزاء اليهم .

ولا عجب ، فإن تلك اللفائف الأثرية كانت نادرة ، وقد أصابها من الدهر ما أصابها . على أن البردى الخام كان باهظ الثمن بل ربما كان يحتكره البلاط ، وكان النساخون قليلاعديدهم ،مرتفعة أجورهم ، وهذا جعل المخطوطات عزيزة . ومايدرينا ؟ فربما كانت البردية الواحدة من تلك البرديات تحل محل مكتبة كاملة ، وتضم فى لفافة واحدة المؤلفات المختلفةالتى أراد صاحبها اقتناءها .

ومن دلائل افتقار تلك اللفائف الى النظام فى تصنيفها تباين محتويات كل منها فى الجوهر والروح كما سنرى فيما بعد ، بل فى الخط نفسه ، ولذا فإنه ينبغى لنا ألا نقرأ تلك اللفائف على أن كلا منها مؤلف قائم بذاته ، بل يجب أولا إجراء عملية تحليل لأجزائها المتباينة ثم قياس تلك الأجزاء بأمثالها من اللفائف

الأخرى من حيث الخط واللغة والروح والموضوع ،وضم القطع المتناظرة والمتكاملة ، لعلنا بهذه الطريقة نستقرىء ما كانت عليه النصوص الأصلية التى اقتبست منها تلك المؤلفات .

أما إن تلك البرديات منقولة عن نصوص أقدم منها فهذا مالامراء فيه ، ويتضح من عبارات عديدة وردت فيها ترجع أجزاء منها إلى مؤلفات أقدم منها ، ومن قصص تذكر وجود لفائف سحيقة فى القدم ، وكثيراً ما تفخر اللفائف بعراقة أصلها ، إلا أن هذه النسبة فى كثير من الحالات مختلفة تساير ذوق الجمهور لتقنعه بأصالة نصوصها . نرى مثال ذلك فى لفافة لندن التى تقول عن نفسها إنها أنزلت من السماء بين ظلام دامس يضيئها شعاع من القمر ، وسط فناء معبد تميس ، فضمت إلى كنز خوفو (الذى عاش ألف سنة قبل تاريخ كتابتها) . ثم إنه ورد فى مستهل باب التقيح من لفافة إبرس أنه منقول من مخطوط وجد تحت قدمى تمثال الإله أنوبيس فى ليتوبوليس فنقـــل إلى الفرعون أوزافاييس خامس فراعنة الأسرة الأولى ، وأكدت لفافة برلين تلك الرواية .

وتثبت قدم أصول تلك اللفائف دراسة النصوص لغويا ، فإننا نلتقى فيها بكلمات كانت مهجورة وقت نسخها فاستدعت

تحريفاً من جانب النساخ ، أو عبارات مثل : « هنا وجد عزقاً » أو تعليقات شخصية مثل « جربت هذا ووجدته طيباً » ، وهى مكتوبة فى السياق بيد النساخ أنفسهم ، وهذا لأن الأصل نقل على علاته بدون تمييز .

وقد أكدت روايات المؤرخين القدامى وجود موسوعات قديمة فى الطب تعد أقدم كتابات طبية فى العالم. روى مانيتو الكاهن بمعبد هليوبولس (٢٨٠ ق . م .) أن أثوتيس ابن منا موحد القطرين ألف كتباً طبية ومنها مؤلف فى التشريح ، وأن مكتبة منف كانت تزخر بالكتب الطبية فى عهد إمحوتب (٣٠قرن ق.م.) وتحدث كليمان الإسكندرى (القرن الثانى الميلادى) عن موسوعة سرية فى ٤٢ جزءاً فى العلوم قاطبة منها ٦ فى الطب كانت تحفظ فى المعابد .

إلا أن اللفائف على إطلاقها لا تمثل غير جزء من معلومات أطباء الفراعنة . فهناك ما يدل على أن علماء مصر اتبعوا طريقة التلقين الشفوى من الأب إلى الابن أو من الأستاذ إلى تلميذه بعد درجة معينة من التعليم حرصاً على سريته ، مما يحمل على الظن بأن معلوماتنا عن طبهم سوف تظل ناقصة لعدم تدوينه بأكمله .

كما أنه يستدل من عدة روايات ونصوص على أن تعليم الطب

كاد يعد سرًّا لا يفشى إلا لمن أقسموا اليمين ، روى إسترابون أن الكهنة أخفوا عن أفلاطون و «أودكسوس» الجزء الأكبر من علمهم حتى بعد أن أمضيا ثلاث عشرة سنة فى مصر . ودون ابن أبى أصيبعة رواية مماثلة بصدد زيارة فيثا غورس لمصر .

ومن مظاهر السرية التى أحاطت بتعليم الطب حتى عهد الإغريق المزدهر فقرة جاءت فى قسم أبقراط ، الذى كان يقسمه كل من رغب فى مزاولة الطب ، وقد حار فيها المفسرون وهى : «وأشرك أولادى ، وأولاد المعلم لى ، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبى فى الوصايا والعلوم وسائر ما فى الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل بهم ذلك » .

وتبدو هذه السرية كأنها من رواسب قرون سبقت أبقراط ، وربما كانت من آثار الطقوس الفيثاغورية والأورفية وغيرهما من المذاهب السرية السائدة ، ونحن نعلم مايدين به فيثاغورس وغيره من فلاسفة الإغريق للمصريين .

أهم اللفائف الطبية :

وأهم لفائف البردى التى كشفت اليوم هى ثمان ، أطلق عليها أسماء مكتشفيها أو ناشريها أو أصحابها أو المدن التى تحفظ فيها أو القرى التى وجدت فيها . وتلك اللفائف هى لفافة إدوين سميث

وإبرس وكاهون وهرست وبرلين وشستربيتي ولندن وكارلزبرج وهناك مخطوطات ثانوية أخرى ، ولا شك أن أرض مصر الضَّنينة تكتنز فى باطنها لفائف أخرى تَضِنّ علينا بها إلى اليوم.

وكان يقوم بالنسخ كتاب محترفون ليسوا من الأطباء ، وإن رجّح « جرابو » أن كاتب لفافة «كاهون» طبيب ؛ ومما يحمل على الظن أن بعضهم كان فعلا من الأطباء أن بعض الأطباء كان يحمل بين ألقابه لقب «كاتب» ورسم على النقوش حاملا لرمز الكتاب، وهو الريشة ولوحة حاملة لإنائين من أوانى المداد .

ولكن الكاتب لم يكن مجرد خطاط فى هذا العصر الذى كانت فيه الكتابة علماً سريا ، بل كان يجمع صفات الكاتب والأديب والفيلسوف .

ويبدو أن عملية النسخ كانت تمارس فى مؤسسات متخصصة تشبه الأكاديميات الحالية ، و «موسيون» الإسكندرية فى عهد البطالمة، وكانت تسمى «بيوت الحياة» ، ويلتقى فيها العلماء والفلاسفة والأطباء وطلبة العلم فى ندوات علمية ليتبادلوا الآراء فيها .

لفافة كاهون :

وأقدم لفافة وصلت إلينا هى لفافة كاهون التى اكتشفت فى مدينة اللاهون بالفيوم ، وترجع إلى عام ١٩٥٠ ق . م .

وقد دوّن على ظهرها حساب من عهد أمنمحعت الثالث أحد فراعنة المملكة الوسطى (١٨٤٠—١٧٩٢ق.م.) ، وهى ليست فقط أقدم اللفافات فى تاريخ نسخها ، بل إن أصلها يبدو أيضاً أقدم من أصول اللفافات الأخرى . وتتكون تلك اللفافة من قسم طبى وقسم بيطرى وقسم خاص بحل بعض المسائل الحسابية ، كتبت كاللفافات الأخرى بالهيراتيقية فيما عدا الجزء البيطرى الذى كتب لأمر ما بالهيروغليفية ، وهو خط كان وقفاً على الكتابات الدينية .

أما القسم الطبى، وهو الذى يعنينا ، فيقع فى ثلاث صفحات ، الأولى متآكلة ممزقة مشققة رممت فى عهد قديم بلصق قطع من لفافات بردية أخرى على ظهرها . والثانية فى وسطها ثقب كبير وليس بها من الأسطر الكاملة إلا سبعة . والثالثة أعيد تكوينها من ست وأربعين قطعة متناثرة .

وتضم الصفحتان الأوليان سبعة عشر تشخيصاً ووصفة فى أمراض النساء ، ولم يوضع عنوان لكل تشخيص ، وفى شأن العلاج لم يذكر أى إجراء جراحى ، وإنما اكتفى بوصف العقاقير ، مثل الجعة واللبن والزيت والبلح وبعض الأعشاب ، والعلاج بالغسيل والتبخير المهبلى .

وتحوى هذه الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة لتمييز العقيمات من بين النساء وللتكهن بجنس الجنين . مثال ذلك أنها تشير لمعرفة خصب السيدة بأن تجلس السيدة فوق بقايا جعة و . . . ، فإذا تقيأت كانت خصبة ، ودل عدد مرات القىء على عدد الأولاد الذين سوف تلدهم . أما إذا لم تتقيأ فإن هذا يدل على أنها عقيم . والظاهر أن كل الإشارات الخاصة بمعرفة العقم مبنية على نظرية أن هناك اتصالا بين المهبل وبقية الجسم فى حالة الخصب ، وهذه النظرية هى التى أوحت ولا شك بالوصفة الأخرى ، وهى وضع لبوس من الثوم فى المهبل ثم ملاحظة رائحته فى الفم إذا كانت المرأة خصبة .

وقد استعمل الإغريق الطريقة نفسها ، ووصفها أبقراط فى كتاب الفصول ، وليس ثمة شك فى أنه اقتبسها منهم ، ثم توارثها أطباء العرب ثم الإفرنج حتى استعملت فى القرون الوسطى فى أوربا ، وهذه الطريقة قد تبدو لنا خيالية أو مبنية على تأملات مجردة ، إلا أن الأستاذ الدكتور أحمد عمار أبدى أنه يجب ألا نستبعدها دون أن نجربها ، فقد لاحظ أن الخصبات من النساء يشعرن فى فمهن بطعم الثوم بعد حقن الليبودول فى الرحم نتيجة لانتقال اليود الموجود فى الليبودول من الرحم إلى التجويف البريتونى ، ومنه إلى الرئة إذا كان البوقان سالكين .

وتعتمد بعض الإشارات الخاصة بالولادة على حالة الثديين وقوامهما ، أو على لون البشرة والعينين . وما نزال نرى فى مصر الحموات يتحسسن ثديى زوجة الابن ويترقبن ظهور البقع السمراء على الوجه عند أول حدوث الحمل .

غير أن الكثير منها مبنى على استخدام التعاويذ وعلى طرق تمت إلى الدجل والشعوذة ، أكثرمما تتصل بالطب الحقيقى ، وهى فى هذا شبيهة بما جاء فى الموضوع نفسه على ظهر بردية برلين .

لفافة إبرس :

هى أضخم لفافة اكتشفت إلى اليوم ، وصلت إلينا كاملة فى ١٠٨ صفحات ،وتحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم أمنوفيس الأول (١٥٥٠ ق.م) ، ولكنها كسائر اللفافات ليست مؤلفا ذا وحدة موضوعية ، بل إنها أشبه بلوحة الفسيفساء المستمدة قطاعاتها المختلفة الألوان من أجزاء مؤلفات أخرى متناثرة ، وهى تبدأ بديباجة سحرية . وكان الغرض من تلك الديباجة تقديم الحجة على أصالة الكتب الإلهية ، وعلى أن قوة السحر مستمدة من الإله الخيّر تحوت ، الذى كلفه رع بحماية البشر المتألم ، ثم استعمالها تعويذة شافية . وهذا الاتجاه الروحانى جلى فى الأصول التى تنسب إليها بعض الوصفات ، فإن ستا منها ابتكرها الآلهة لأنفسهم . . !

ويمكن تقسيم محتويات هذه اللفافة — التى يجدر بنا أن نسميها موسوعة — إلى توسلات للآلهة وتعاويذ ، ثم قسم خاص بالأمراض الباطنية وعلاجها ، وهو يُعد أول مؤلف فى التاريخ يعالج سر الحياة بتأملات فلسفية غير دينية أوسحرية ، ولو أنه يرد أغلب الأمراض الباطنية إلى أسباب روحانية ، ثم تجىء وصفات لأمراض العيون وغيرها ، كأمراض الجلد ، وللتجميل والزينة وإنماء الشعر ، ثم باب فى أمراض الأطراف ، ويتناول الكسور والحروق ولم يعالج الجروح ، وهو شبيه بما جاء فى لفافة إدوين سميث فى هذا الصـــدد ، ثم وصفات مختلفة ودراسة لأمراض النساء وعلاجها يعيد الكثير مما جاء فى لفافة كاهون ، ومؤلفان عن القلب والشرايين هما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا فى علمى التشريح ووظائف الأعضاء ؛ ومؤلف فى الجراحة اقتصر على الأورام والخراجات ولم يتناول الجروح،وقد سمى (بكتاب الأورام) . وقد حوت هذه الموسوعة ٨٧٧ وصفاً ، بعضها فى كيفية التشخيص ، وبعضها مقرون بالعلاج ، وبعضها إشارات علاجية .

ومن الأوصاف الإكلينيكية تعرّف إيبل على خمسة عشر مرضاً ، منها التورم والاستسقاء والقيلة والجزام ، إلا أن علماء

اللغة لم يرضوا عن كل ترجماته وتفسيراته ، لأن الكثير منها لم يصحبها ما يبررها ، وأذكر على سبيل المثال بعض الأوصاف الإكلينيكية الجميلة .

تعليمات خاصة بورم الأوعية :

إذا فحصت ورماً فى الأوعية فى طرف من الأطراف ووجدته نصف كروى يتضخم تحت يدك كل مرة (أى ينبض) ولكنه إذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض وبهذا لا يمكنه أن يتضخم وأن ينكمش ، فقل عنه إنه ورم فى وعاء ، إنه مرض سأعالجه وإن الأوعية هى التى سببته ، وقد نشأ عن إصابة للأوعية . وهذا وصف صحيح لورم شريانى ولمميزاته ، وهى أنه ينبض ، وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلى كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة وأن وصول النبض إليه من الشريان فوقه عرف أيضاً .

توجيهات خاصة بورم فى الأوعية :

« إذا تفحصت ورماً فى الأوعية فى طرف من الأطراف ووجدته نصف كروى يتضخم تحت يدك كل مرة (أى ينبض) ، ولكنه إذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض وبهذا لا يمكنه

أن يتضخم أو أن ينكمش ، قل فى شأنه إنه ورم فى وعاء ، إنه مرض سأعالجه .

وإليك وصف الفتق :

توجيهات خاصة بورم غطاء قرنى البطن (أى الحدود السفلى للبطن التى تشبه القرنين فى شكلها) : إذا تفحصت توزماً فى غطاء قرنى البطن فوق العانة ، فضع إصبعك عليه وتفحص بطنه وأطرق على أصابعك ، فإذا تفحصت ... ما برز وظهر فى إثر سعال فعليك أن تقول فى شأنه هذا ورم فى غطاء البطن ... هذا مرض سأعالجه ... الخ .

ونلاحظ فى هذين الوصفين دقة الوصف إذ أنهما أبرزا أهم النقط فى تشخيص الورم الشريانى والفتق ، وهى فى الأول أنه ينبض وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلى . (كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة وأن وصول النبض إليها من الشريان فوقه عرف أيضاً) ، وفى حالة الفتق ظهوره بعد السعال ، كما أنه ذكر طريقة الفحص بطرق الأصابع التى اكتشفها من جديد أوتبروجر فى القرن السادس عشر الميلادى .

وصف جميل للذبحة الصدرية :

إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته ... فقل بصدده : هذا شيء (أى روح) دخل من فمه والموت يهدده .

ولا تقتصر أهمية موسوعة إبرس على الأوصاف الإكلينيكية التى جاءت بها ، إذ أنها تعتبر أيضاً مرجعنا الأساسى فى علم عقاقير المصريين وفيما نسميه الآن المادة الطبية .

ومن الوصفات العلاجية التى جاءت بها ما هو مركب من عقاقير فعالة ما نزال نصفها إلى اليوم ، وإن كان استعمالها يحاط أحياناً بإجراءات شبيهة بالسحر ، كأن توصف فى أشهر معينة من السنة فقط أو مصحوبة بالتراتيل والبخور ... الخ .

ومنها ما كان سحريا خالصاً يعتمد على إثارة الاشمئزاز فى الروح الشريرة التى حلت بالجسم وأحدثت به المرض ، أى على أحد ضروب التفكير الروحانى الأخرى التى سبقت لنا مناقشتها .

وسيأتى ذكر كل تلك المواد فى باب العلاج ، وسأكتفى بأن أذكر أن من تلك الوصفات وســـائل لمعرفة جودة لبن الأم ولتشخيص الحمل والإجهاض ولتحسين رائحة الفم . . ومنها باب (فى علاج عضة الإنسان والتمساح وفرس البحر والسبع) يشابه

لفافة عرست تشابهاً يكاد يكون تاما ، وعلاج الأسنان المسوسة بحشوها بخليط من كاربونات النحاس والصمغ ومواد أخرى ، وهذا يعد من أكثر علاجاتهم إثارة للإعجاب ؛ أما أوصاف أمراض النساء التي جاءت في هذا المؤلف المحيط فإنها تشبه ما جاء في لفافة كاهون وعلى ظهر لفافة إدوين سميث تماماً .

ولعل أهم ما جاء في هذه المكتبة المختصرة مؤلف عن القلب والأوعية عنوانه : « بدء سر الطبيب : معرفة حركة القلب » . ويبدأ بهذه الفقرة : « هناك أوعية منه (أي من القلب) لكل طرف ، وفي هذا الشأن فإن أي جراح وأي كاهن من كهنة سخمت أو أي ساحر إذا وضع يده أو أنامله على القلب ، على ظهر الرأس ، على اليدين ، على المعدة ، على الذراعين ، أو على القدمين ، فإنه يتفحص (بذلك) القلب ، إذ أن كل أعضائه مزودة بأوعيته ، أعني أنه (القلب) يتكلم عن طريقة أوعية كل طرف » .

وقد وجد الأولون الذين درسوا هذا المؤلف صعوبة كبيرة في تتبع نص هذا القسم ، بل عثروا على تناقض بين فيما ورد فيه من معلومات ، لأنه ذكر حيناً أن عدد الأوعية ٢٢ ، ثم قال إنها ٤٦ ، إلا أن علماء اللغة تمكنوا من حل هذا اللغز ، وأوضحوا أن هذا المؤلف مشكل من مؤلفين مختلفين ، كل منهما قائم بذاته ،

اولها كتاب، نظرى عن القلب ووظيفته وعن الأوعية وأهميتها لم يرد به ذكر أى مرض أو علاج ، بخلاف الثانى الذى تناول أمراض الأوعية والقلب وعلاجها ، وهذان الجزآن اختلطا عند الكاتب فنسخ جزءا من المؤلف الأول ، ثم جزءا من الثانى ثم الجزء الثانى من الأول ، فبقية الثانى . ويماثل الكتاب الثانى ما جاء فى لفافة برلين عن القلب ، وروى فيه تاريخ كشفه كما روته تلك اللفافة ، وذيل بتعليق طويل يماثل ما اختتمت به تلك اللفافة أيضا . ومهما يكن من أمر الكتابين فانهما يبرهنان دون مجال للشك على أن الأطباء المصريين عرفوا حركة القلب وعلاقة حركته بنبض الشرايين المتطرفة ، أطلقوا على الشريان الرئيس القريب من القلب اسم « الوعاء » وهو فى الغالب الشريان الأورطى .

لفافة هرست :

وهى تقع فى ١٨ صفحة وتصف ٢٦٠ حالة وردت ٩٦ منها فى لفافة إبرس أيضا ، ثم إنها تحوى بابا عن العظام . وعلى الجملة فإن تلك اللفافة أقل قيمة من لفافة إبرس وإن فاقتها فى بعض فقراتها .

لفافة برلين :

روى فيها بجاملة النظرة اللاهوتية للطب ، أنها وجدت فى صندوق قديم مع كتابات عتيقة تحت قدمى الإله أنوبيس فى ليتوبوليس فى عهد الملك أوزافايس ، وهى تشمل ٢٤٠ وصفة وتقع فى ٢٥ صفحة ، نسخت ثلاث منها بخط مختلف ، وفى كثير من أجزائها تكرار لبعض فقرات هرست وإبرس ، ثم إنها مليئة بالأخطاء ومظاهر الإهمال ، وأقل مدعاة للاهتمام ، وبها باب عن الروماتزم ، وكتاب عن الأوعية يماثل ثانى كتابى لفافة إبرس فى هذا الموضوع ، وإن ذيل بنبذتين ، إحداهما عن أصل هذا الكتاب، وهى أكثر تفصيلا مما جاء فى لفافة إبرس ، والثانية تعد امتداداً وتوسعا لما ورد فيها ، ويمكن وضع هذا الجزء فى مستوى أعلى مما ورد فى لفافتى هرست وإبرس .

أما لفافة لندن : وهى مسيحة ، أى إن الكتابة الأصلية مسحت عنها ليكتب عليها ثانية (مما يدل على غلاء ورق البردى) فهى تقع وسيطا بين كتب الطب السابق ذكرها وبعض كتب الرقى مثل « تعاويذ الأم والطفل » و « كتاب السحر » الموجود فى تورينو ، وقد وردت بها ٦١ وصفة منها ٢٥ فقط طبية ، والباقى تعاويذ ، والبعض منها من أصول دخيلة على مصر .

كتاب الأطباء السحري ..؟
أو لفافة أودين سميث والجراحة

تقسيم نظرتنا إلى طب قدماء المصريين إلى مرحلتين : مرحلة قبل كشف لفافة إدوين سميث ومرحلة بعدها. إذ أن المؤرخين كانوا يظنون فى أثناء الأولى أن الطب المصرى كان مكوناً من قسط وفير من الشعوذة تصحبة معرفة جزئية للعقاقير والنباتات والتشريح، وأن استعمال تلك الأدوية كان مبنياً فى كثير من الأحوال على اعتبارات تتصل بالسحر أكثر مما تتصل بالطب . إلا أن هذه اللفافات أقامت أول دليل على وجود طب منطقى عقلى أساسه الخبرة والملاحظة وعلم تشريح سليم . وهى تمتاز فى أسلوبها باستعمال لغة التخصص ، لغة قوية ، غنية بالتعابير والتشبيهات الدقيقة. وفى موضوعها تبويب منطقى مرتب يدل على تقاليد طويلة وتفكير أصيل سبقا تأليفها ، وبخلوها من أية نظرية أو أى مظهر من مظاهر الطب الروحانى التى تزخر بها المؤلفات الأخرى . وهى تصف ٤٨ مشاهدة فى جراحة العظام والجراحة العامة ، مرتبة حسب ترتيب أعضاء الجسم ، تبدأ بالرأس وتتدرج إلى الأنف والفك ، وفقرات الرقبة ، .

وفقرات الظهر ، والأضلاع ، والصدر ، والترقوة ، والكتف ، واللوح ، واليدين ... ويحق لنا أن نتخيل أن الأصل كان يتناول بقية الجسم كالبطن والحوض والساقين.. الخ ، إذ أن آخر مشاهدة — وهى تتصل بالعمود الفقرى — تختتم بعبارة ناقصة ، كأن كاتبها تركها ليقضى أمراً ثم لم يتم كتابتها .

ويلاحظ أن طريقة العرض فيها تتسم بالنظام ، فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالى : « توجيهات بشأن . . . » ثم يجىء الفحص ويبدأ بالعبارة : « إذا تفحصت إنساناً به . . . » ، ويتبعه التشخيص : « فقل فيما يخصه إنه يشكو من . . . . . » ، ثم المآل المتوقع ، وهو يعبّر عن احتمالاته الثلاثة : الجيد والمشكوك فيه والميئوس منه ، بالعبارات التالية : « سأعالجه » أو « سأكافحه » أو « مرض لن أعالجه » .

وبعد ذلك يأتى العلاج وينتهى ببعض التعليقات والتفسيرات اللغوية أو الفنية التى — وإن كانت موجهة إلى قارئها فى ذاك الوقت — فهى تمكننا اليوم من تفهم مدلولات ألفاظ كثيرة وردت بها . ولنذكر على سبيل المثال الأوجه الجديرة بإعجابنا فى تلك اللفافة .

١ — معرفة للتشريح غير ميسورة فى هذا الزمن . فإن اللفظ

الدال على المخ ورد — أول مرة فى التاريخ — فى عهد لم يكن فيه لهذا العضو تسمية فى أية لغة من اللغات ، كما ورد ذكر الكيس المغلف له ، وفى هذا إشارة صريحة للأم الجافة والأم الحنون ، وهما غشاءا المخ ، أما النبذ الخاصة بالعظام والفقرات فهى عديدة .

٢ — الدقة فى الفحص . وصحة تفسير العلامات الإكلينيكية ، الأمر الذى لا يمكن تحقيقه إلا بمعرفة سليمة لقواعد فسيولوجية أساسية . فقد عرف صاحب هذا المؤلف معنى قرقرة العظام تحت اليد ، واستعان بهـــا فى التفرقة بين الكسر والجزع ، الذى قال عنه بحق إنه إصابة للأربطة دون تغير فى وضع العظام . ومن التشبيهات التى تدل على أن الجراح كان يعنى بتفحص مريضه بيده — بل إنه كان أحياناً يجرى الصفة التشريحية على المصابين — تشبيه كسر الجمجمة بإناء من الفخار مثقوب وسطح المخ بتجعدات كتلك التى تعلو على النحاس عندما يذوب تحت تأثير النار ، وقوله فى كسور الرقبة : «إن الفقرة تنغرز فى الفقرة التى تليها كما تغوص القدم فى أرض مزروعة » .

٣ — الأهمية القصوى التى أعيرت للنبض فى معرفة حالة المريض وحالة القلب ، وقد جاءت فى أول الكتاب نبذة طويلة

عن الشرايين والنبض ومحل جسه ، ومما يؤسف له أن هذه الفقرة وردت فى الصفحة الأولى المليئة بالثغرات مما زاد فى غموض معانيها . ومن العبارات التى أثارت بعض الجدل ، ما يمكن تعريبه على الوجه الآتى : « إن فحص المرض يشبه (عدّ أو قياس) مرض شخص لمعرفة وظيفة قلبه » . وقــد رجح بريستد أن هذا التعليق يشير إلى عد النبض ، إلا أن هذا فرض ما يزال الشك يحوم حوله ، إذ أن النبض لا يمكن عده دون الاستعانة بأجهزة دقيقة لقياس الوقت ، ومثل تلك الأجهزة لم يعم استعمالها قبل المملكة الحديثة ، ولم يكشف منـه إلا مزولتان مائيتان من عهد تحوتمس الثالث ومرنبتاح . ولـكن إذا صح فرض بريستد فإن صاحب اللفافة يكون قد سبق أبقراط وديموقريط — (القرن الخامس قبل الميلاد) اللذين لم يذكرا عد النبض — بألفى سنة أو تزيد ، وقد لا يكون من مجرد الصدفة أن أول من عده هوهيروفيلوس (٣٠٠ ق . م .) الذى زاول مهنته فى الإسكندرية (بمصر) حيث كانت علاقة القلب بالنبض معروفة منذ ٢٥٠٠ سنة ، وكانت المزاول المــائية معروفة منذ زمن ، بل يمكن التخيل — إذا فرض أن عد النبض ورد ذكره فعلا فى « كتاب الأطباء السرى » (انظر لفافة إبرس) —

أنه كان سرا من الأسرار التى أخفاها العلماء المصريون عن أبقراط وغيره من الزوار الإغريق . ونعتمد فى تقديمنا ذلك المؤلف على هذا النحو على بريستد الذى قارن القسم الوارد عن النبض فى لفافة إدوين سميث بنظيره فى لفافة إبرس الذى كان عنوانه « بدء كتاب الأطباء السرى » ، وقرر أن المؤلفين نقلا عن أصل واحد ، وأن لفافته كانت تستهل — قبل أن يأتى بها الدهر ما أتى — بالعنوان نفسه وهو : « كتاب الأطباء السرى » .

٤ — عدم الاكتفاء بدقة الوصف المحلى للإصابة، بل الربط بين ظواهر متلازمة فى أجزاء متباعدة من الجسم تكون منها — أول مرة فى التاريخ — صور إكلينيكية مميزة . . وقد قيل إن جالينوس هو أول طبيب حقق هذا التقدم فى التفكير الطبى ، إلا أن طبيبنا العبقرى سبقه بسبعة عشر قرناً . ومن أمثلة تلك المتلازمات التى وصفها إصابات العمود الفقرى المصحوبة بالشلل، والتبول غير الإرادى ، والاستمناء مع تخصيص الاستمناء بإصابة فقرات الرقبة الوسطى ، والربط بين كسور عظمة الصدغ والصمم ، وبين إصابة ناحية من المخ والشلل النصفى . وتدل تلك الملاحظات على معرفة أمرين هامين ، هما أن

ناحية الإصابة تحدد ناحية الشلل وأن النخاع الشوكى والمخ يسيطران على حركة الجسم ، ولو أن الصلة بين المخ والنخاع أو بين الجهاز العصبى والأعصاب — بصفتها امتداداً له — لم ترد إلا فى القرن الرابع قبل الميلاد فى كتابات إغريق الأسكندر (إيزستراتس وهيروفلوس) وأن اللفافة قالت : إن الشلل يحدث على ناحية الإصابة نفسها ، وهو عكس المعتاد ، ولعل ما نسميه برد الفعل (contrecoup) هو ما خدع المؤلف فى هذا الصدد .

٥ — اهتمامه بتتبع أطوار المرض للوصول إلى التشخيص والتكهن بالمآل . نذكر على سبيل المثال حالة رأى البعض فيها التيتانوس ، ورجح الأستاذ الدكتور كامل حسين أنها الالتهاب السحائى ، وقسم وصفها إلى فحص أول وفحص ثان وفحص ثالث ، فحلل عوارض كل مرحلة من المراحل الثلاث ، وناقش ما يمكن عمله لكل منها ، وما يمكن استنتاجه من حيث سير المرض وما له من تطور العوارض بين فحص وآخر .

٦ — الانتقال من التشخيص إلى التكهن بالمآل ، فيقول مثلا إن مآل كسور الجمجمة سيء إذا كان المخ لا ينبض تحت اليد

أو إذا كان العظم منخفضاً داخل المخ ، أو إذا لوحظ تصلب فى الرقبة ، أو نزف من الأنف أو الأذن أو تحت الملتحمة .

وكلها علامات حدوث مضاعفات معروفة تزيد فعلا من خطورة الإصابة .

٧ — دقة وصف التحريكات العلاجية .. ومن أهم الأمثلة لذلك وصف كيفية إعادة جزئى الترقوة المكسورة إلى محلها . وهذه هى الطريقة التى قال عنها عميد المختصين الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين إن العلم الحديث لم يصل إلى أحسن منها ، وإنها تؤدى إلى درجة تامة فى الشفاء . وإليك هذا الوصف :

« إذا فحصت رجُلاً مصاباً بكسر فى الترقوة . ووجدت بها قصراً ، فقل : « هذا مرض سأعالجه » . وألقه على ظهره ، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزآ ترقوته ويرجع المكسور إلى موضعه . وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلى من ذراعه ، وضمده بمرهم « الأيمرو » ثم فى الأيام التالية بالعسل .

وهناك وصفة أخرى لردّ فك مخلوع . وهى الطريقة التى وصفها الإغريق بعد تاريخ كتابة اللفافة بعشرة قرون ، وهى الطريقة الموصوفة أيضاً فى أحدث مؤلفات الجراحة .

٨ — تباين المعدات الجراحية التى كان يستعين بها المؤلف فى العلاج ، منها :

(١) قماش نباتى يطلى بالدواء قبل وضعه على الجسم،ويوضع كما هو على الجروح لامتصاص الإفرازات والدم .

(٢) فتائل أو حشو أو سدادات من الكتان تستخدم إما مشبعة بعقار ، وإما نقية للتنظيف . أو بصفة جبائر صغيرة لحفظ شكل الأنف إذا كسرت عظمته .

(٣) الأربطة : وكان يصنعها المحنطون ، على أن ممارسة التحنيط قد أكسبت المصريين مهارة فائقة فى ربطها .

(٤) الأربطة اللصاقة ؛ وكانت توضع منها قطعتان مستعرضتان على الجرح لضم حافتيه .

(٥) الخياطة ، وقد ذكرت ست مرات .

(٦) الكى،وكان يجرى بالخراز النارى (مثقاب توليد النار) وهو جهاز يسخن به طرف قطعة مدببة من الخشب بحكها فى ثقب من قطعة خشب أخرى ، وقد أوصت بردية إبرس كذلك باستعمال مفصد محمى .

(٧) الجبائر ، وهى إما قطع من الخشب ملفوف عليها كتان

توضع فى الفم لحفظه مفتوحا حتى تتيسر تغذية المريض إذا تعذر عليه فتح فمه ، وإما جبائر من الخشب المبطن بالكتان، أو لفافات صلبة من الكتان دون سند من الخشب .

(٨) وأخيراً حوامل من الطوب المجفف فى الشمس (يلاحظ استعمال كلمة « أدوب » التى أخذت منها لفظة الطوب) وأوصى المؤلف بوضعها تحت ذراعى المريض الذى لاتسمح له حالته بالاستلقاء على ظهره . ويرجح بريستد أنها كانت تصاغ على شكل جسم المريض لتريحه ، كما كانت تصاغ الأربطة المقواة حول الموميات .

وقد حار علماء المصريات فى شخصية مؤلف هذه اللفافة : رجح بريستد أنها قد تكون من تأليف ايموحتب ذاته ولم يوافقه على هذا الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين لأسباب تحليلية دقيقة ، أهمها أنه يبدو بعيداً كل البعد — فى تفكيره ومعاملته لمرضى — عن الكهنة أو عمن تلقوا العلوم منهم ودرجوا على أسلوبهم فى التفكير . وأنكر أيضا أنه كان جراحاً حربيا كما قال البعض الآخر ، حيث إن جروح الحرب لكثرتها — ولظروف الهجوم والدفاع والحركات الحربية — لاتدع وقتاً كافيا لدراسة كل حالة الدراسة التفصيلية التى تنم عنها اللفافة .

ثم لاحظ الدكتور محمد كامل حسين أن الإصابات التى تناولتها اللفافة من النوع الذى يحدث من سقوط من ارتفاع .. وفى مثل بناء الهرم الأكبر الذى شيد فى ثلاثين سنة تحدث إصابات كثيرة من هذا النوع ، متباعدة فى الزمن تباعداً يسمح لمتولى أمرها بأن يدرسها دراسة وافية ، وأن يتأمل فيها تأملا كافيا ، فرجح أن المؤلف هو عامل من أولئك الذين شاركوا فى تشييد الهرم الذى استغرق بناؤه وقتاً طويلا ، عامل امتاز بعبقرية نادرة وبحبه لجاره ، وبقوة ملاحظة ثاقبة، بلغته ما وصل إليه من شأن

* * *

إلا أن ماسبق قوله عن اللفافة لايخص غير قسم منها ، إذ أنها مكونة من ثلاثة أقسام . أهمها وأطولها هو ذلك الذى وصفناه وسمى بـ (كتاب الجروح) ، وهو الذى قال عنه بريستد : إنه قد أحدث بدون شك ضجة كبيرة فى العالم الطبي عند ظهوره ، وأزيد أنه أحدث ضجة كبرى بين طلبة تاريخ الطب اليوم عندما ترجم ونشر .

أماظهر تلك الفافة فجزء منها مكتوب بمثل خط صفحتها الأولى وجزء بخط آخر ، وهو يحوى ٨ تعاويذ « لإبعاد هواء الطاعون

السنوى » ، ووصفة قال عنها العلماء خطأ إنها سحرية ، وتعنى بإعادة الشباب إلى الشيوخ ؛ ولكن التدقيق فى قراءتها يبين أنها لاتزيد على كونها وصف لكيفية استخراج زيت الحلبة واستعماله دهاناً للشيوخ لإزالة الصلع والنمش وكل علامات الشيخوخة التى تشوب الجلد . ومن العجيب أن الجمهور فى مصر يستعمل الحلبة لاستعادة القوى .

وسأذكر أولى تلك الوصفات لأظهر التباين الكلى بينها وبين الجزء الأول ، وهى خاصة بإبعاد هواء الطاعون السنوى (أو هواء سنة الطاعون) وفيها — مع طابعها الروحانى الظاهر — أول ذكر لأرياح تحمل الأمراض : « تعويذة تتلى على ريشتى رخم توضعان على شخص لحمايته أينما ذهب . إنها حماية ضد السنة ، تطرد المرض فى سنة الوباء : « يا حامل اللهب فى وجهه ! ياسيد الأفق ! حدث صاحب دار حمسوت الذى يجعل أوزيريس يزدهر ، يانخبت ، يارافعة السماء من أجل أبيها ، أحضرى الريشتين واربطيهما حولى لأعيش» ... وما إلى هذا من توسلات غامضة المعنى مليئة بالإشارات إلى الأساطير .

ولاشك فى أن تلك الأقسام الثلاثة — التى تختلف فى اللغة

والجوهر والروح والخط — استنسخت من أصول متباينة ، لم تجمعها على نفس البردية إلا الصدف التى وضعتها أمام الكاتب على هذا الترتيب ، شأنها فى ذلك شأن اللفافات الطبية قاطبة . ولنا أن نأسف إذ أن القسم الجراحى لم يأت كاملا ليرشدنا إلى كل ما كان قد حققه جراحو ذلك العهد .



الجراحة والفنان

ما الذى نعرفه عن
جراحة المصريين عدا
ماجاء بلفافة أدوين سميث

قال بعضهم ، مازحا : إنه لايقدر مؤلفا بما ورد فيه ، وإنما بقدر ماحذف منه ، أى بقدر مااقتضى تأليفه من دراسات وتأملات لم يذكر تفصيلها فى المؤلف . . . . نقتبس هذا القول فنقول إن أهمية لفافة أدوين سميث بالنسبة لنا هى بقدر المعلومات التى تكدست حتما قبل أن تظهر منها تلك اللفافة ، كما تبرز الجزر الصغيرة من قمم الأقطار الغريقة .

وتلك الجزر التى وصلت إلى أبصارنا قليلة . فإننا مثلا لم نعثر إلى الآن على مؤلفات علمية تصف عمليات الجراحة كما كانت تجرى ، ولم تقدم لنا اللفافات الأخرى إلا معلومات ضئيلة بالنسبة للجراحة . وبقية معلوماتنا مستمدة من بعض النقوش التى وجدت على جدران المعابد والمقابر ، ومن نتائج الكشف على الجثث والموميات .

وتلقي تلك النقوش ضوءا قويا على بعض نواحي الجراحة وإن كانت تضع أمامنا ألغازا ليس من السهل حلها . وأول سؤال يطرأ على البال هو : ما الغرض الذى كان يرمى إليه من نقش تلك العمليات على جدران مقابر لم يكن أصحابها من الأطباء . . ؟ أكانت تمثل وقائع من ماضى الموتى ..؟ أكان يرمى إلى إحيائها بالسحر لضمان إجرائها للمتوفى إذا احتاج إليها فى حياته الآخرة ؟ فهل كان الغرض من تمثيل الختان فى مقبرة « عنخ ماحور » التأكد من إجرائه للأولاد الذين قد يرزقهم بعد وفاته ..؟ ماهذه الفروض إلا تخيلات تافهة الأسس قدمت إجابة للأسئلة التى ماتزال مطروحة للبحث إلى اليوم .، وإنى لا أستبعد — مستعينا بكثير من الخيال وبدون أى سند علمى — أن تكون بعض هذه النقوش أو الصور المخفية فى ظلام المعابد لوحات تدريسية تكمل تعاليم الكتب وتصحب التلقين الشفوى فى السراديب السرية بالمعابد ... شأنها شأن النقوش أو الصور اللاهوتية التى كانت تزين القاعات السرية وحجر الآلهة بالمعابد ، والتى كانت تصور بشكل حى أسرار الدين للمريدين من التلاميذ .

وأهم تلك النقوش أو الصور ، النقشان الموجودان فى سقارة فى مقبرة « عنخ ماحور » اللذان يمثلان عملية الختان .. نرى

فى النقش الأيمن منهما شخصا واقفا ، وقد جلس على الأرض أمامه الجراح — الذى ذكرت قبالته عبارة « الكاهن الختن» — ممسكا بيده اليمنى آلة مستطيلة فى وضع عمودى على العضو وفى اتجاه طوله .. ونلاحظ أنه لاتبدو على أسارير وجه الختن ما ينم عن تألمه . أما الجزء الأيسر فيظهر فيه الجراح ممسكا بآلة أو بشىء آخر بيضى الشكل يلمس به العضو التناسلى الذى يسنده بيده اليسرى . وفى هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم . ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه فى قوة وعنف .. ونقرأ قول الطبيب: « امسكه كيلا يقع » والإجابة : « سأفعل وفق إشارتك » . وبديهى أن تكون اللوحة الأولى لإيضاح التحضير أو التخدير للعملية .. إذ يقول الطبيب : « هذا الدهان يجعله مقبولا » .... ولا تنم ملامح المريض على أى ألم ... وأن تكون اللوحة الثانية لتبيين الطور الثانى من العملية وهو إجراء الجراحة نفسها . وقد فسر « بيلى » وضع الآلة « المستطيلة عمودية على العضو » بأن العملية كانت تجرى على مرحلتين : الأولى إحداث قطع مستطيل من منتصف العضو إلى آخر القلفة،والثانية قطع دائرى فى العضو يبدأ عند القطع الأول .

ولقب الختّان يلفت النظر من غير شـــك ، فقد لقب بـ « الكاهن الختن » وربما يدل هذا على أن العملية التى يقوم بإجرائها لاتدخل ضمن اختصاصات الجراح العادى .

وهناك نقش آخر لعملية الختان فى الكرنك يظهر فيه الجراح وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلى فى مستوى الكمرة — بعد ربط العضو برباط دائرى على قاعدته — ويفتح فتحة القلفة بأصابع يده اليسرى . وهذا من غير شك لتجنب جرح العضو عند القطع . ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم الأول فهى أشبه بمشرط أو سكين مكشوط الحد .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الختان لم يكن يجرى فى الماضى بالشكل المتبع الآن ، أى إنه لم يكن استئصالا كاملا للقلفة وإنما كان بمجرد قطع مستطيل يجرى على ظهرها للاكتفاء بفتحها .

وقد كان المصريون — حسبما روى لهيرودوت — أول من زاولوا الختان ، وتبعهم فى ذلك الأشوريون والكوشيون (الأحباش) .. أما غيرهم من الشعوب فقد نقلوه عنهم . وكانت عملية الختان تجرى للأولاد فى المعابد غالبا بين سن السادسة والثانية عشرة ، ومع ذلك فإنها لم تكن فرضا على الشعب كما

صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين — إذ أننا لا نجد لها أثرا فى كثير من النقوش .

ومع أنه لايوجد مجال للشك فى معنى النقشين المذكورين من مقبرة « عنخ ماحور » ، فإن المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان مجالا كبيرا للتخيل فى التفسير ، الأمر الذى لا يسمح بالجزم بما يمثلانه ، ويبين هذا النقش أشخاصا يعنون بقدمى ويدى شخص آخر .. وهذا الأخير يمسك ذراعه بيد منقبضة . وقد دون الفنان الذى قام بالنقش عبارة فى أسفل كل من اللوحتين ، الأولى : « انته واتركنى وشأنى » . والأخرى : « لاتسبب لى كل هذا الألم » . ورأى البعض فى النقشين صورة للتدليك و « المانوكور » و « البديكور » ، والبعض الآخر عمليات جراحية .

وهناك نقشان متشابهان ، مع أن الأول خاص بالملك « أحا » ووجد فى أبيدوس (العرابة المدفونة) ، وأن الثانى خاص بالملك « دجير » ووجد فى سقارة . والاثنان يرجعان إلى أول عصر الأسر ويتصلان بأعياد اليوبيل الملكى « الحب سيد » التى كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكهل وعن طريقه إلى الدولة بأجمعها .

ويمثل كل من النقشين شخصا جالسا يصوب آلة رفيعة

مستطيلة يمسكها من طرفها نحو رقبة شخص آخر، أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحنٍ إلى الوراء وذراعاه مربوطتان خلفه ، وقد فسرهما بترى (Petrie) وغيره بأنهما يمثلان ذبح الأسرى أو القرابين البشرية فى حفلات جناز الملك . . أما فيكانتيف (Vikentieff) فقد قال إن هذين النقشين — بما أنهما متصلان بمراسيم « الحب سيد » — يرمزان إلى إعادة القوى الحيوية إلى الملك المسن، وبالتالى إلى الدولة، وقد شبه فيهما الشعب بمريض قريب من الاختناق ، وشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة التنفس بفتح القصبة الهوائية (التراكيوتومى) .. ويستند فيكانتيف فى ذلك إلى وضع الشخصين ، وطريقة مسك الآلة المدببة ، اللذين هما فى نظره يمثلان ما يتوقعه الإنسان فى حالة إجراء عملية جراحية ، ولا يشبهان وضع القاتل الغادر أو محنط الجثة ، حيث إن الجثة ما كانت وضعت فى هذا الوضع الساجد ... وقد أيد نظريته بحجج لفظية فحواها أن الفعل الدال على التنفس خصصه الكاتب فى هذه اللوحة بالمشرط ، لا بعلامة الأنف أو القلع كما هو المعتاد ، مما يوحى بأن تلك اللفظة تعبر عن نوع خاص من التنفس ، هو التنفس بشق القصبة . وقد أيد الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين وجهة نظر فيكانتيف وأضاف أن المشرط

الخاص الذى على شكل المُسين والذى يسمح بتغير اتجاه القطع كما هو واجب فى تلك العملية .

ومن العمليات الأخرى التى قيل إن قدماء المصريين كانوا يجرونها عملية « التربنة » ولم تذكر لفافة أدوين سميث سوى عبارة خاصة برفع قطع العظم المنخفضة فى المخ دون ذكر التربنة. والدليل الوحيد على إجرائها هو استكشاف جمجمتين إحداهما من العصور السابقة لنا موحد الشطرين، والأخرى من عهد الأسرة الثانية عشرة ، تحمل كل منهما ثقبا مستديرا تدل التغييرات الحيوية التى شوهدت على حافته على أنه أجرى قبل الوفاة بوقت كاف . ومن المحتمل أن إجراء التربنة — إذا صح إجراؤها — كان فى أول الأمر متصلا بالسحر ، وأن الغرض منه كان طرد الأرواح الشريرة من ذهن المريض .

وقد وصل إلينا تصوير جميل على جدار معبد كوم أمبو يمثل جراحاً أمامه آلات جراحية عديدة والمتاحف تزخر بالآت يظن أنها كانت حقيقة مستعملة فى الجراحة ؛ إلا أنه لا يمكن تحديد وجه استعمالها بالضبط أو حتى التأكد من أنها كانت حقيقة مستعملة فى الجراحة . ومن هذه الآلات المخالب والمقصات والمشارط والإبر الخ .

علاج الجروح :

وإذا تتبعنا طريقة علاجهم للجروح وجدنا أنهم استعملوا طرائق لا تختلف فى مبـــدئها عن أحـــدث الطرق ، اللهم إلا إذا استثنينا إستعمال العقاقير الجديدة (المضـــادة للميكروبات مثل البنسلين والسلفا وما إليها) التى لم يكن لهم إليها من سبيل (على أنهم مع هذا استعملوا المعطنات فى العلاج كما سنرى فى باب العلاج) .. تراهم يعالجون الجروح النظيفة فى أول يوم بالخياطة والأربطة اللصاقة ، وقد وجدت مومياء تؤكد ذلك ، إذ أن بها جرحا شتى يحمل آثار خياطة ظاهرة .

أما الجروح الأخرى فكان يوضع عليها لحم طرى . وقد لاتبدو لنا هذه الطريقة غريبة إذا تأملنا فى أنها أنجع وسيلة لوقف النزف ، بل إنها الطريقة الوحيدة فى بعض الحالات ، خصوصا إذا كان هذا النزف من نوع الرشح الذى لايصدر من شريان مقطوع ، لما يحتويه اللحم من المواد « المجلطة » التى تسهم فى تجلط الدم الطبيعى . وقد استعملت هذه الوسيلة فى العصر الحديث فى جراحات المخ ، وأصبحت مألوفة عند الجراحين ، حين لا يمكن كشف الشريان المقطوع أو ربطه .

أما بعد أول يوم فكانت الجروح تضمد بالأعشاب القابضة والعسل . والعسل أيضا له فوائد أكيـــدة ، فإنه يحاول مركز ، يستدر من حواف الجروح ـــ حسب قوانين التناضح (أوزوموز) ـــ مصلا مليئاً بالمواد الشافية المضادة للعدوى .

الكسور :

وجدت لهـــا آثار كثيرة فى الجثث ، وذلك لأن العظام لا تتحلل . وكانت حالات الكسر فى عظم الفخذ كثيرة ، وكانت تشفى تاركة تضخما حول محل الالتئام وقصرا فى العظم ، أما كسور العضد فكانت نتائجها أحسن من حيث استقامة العضو ووظيفته ، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة لطرفى الكسر . وقد وجدت حالات عدة لكسر الزند وحده . والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (إليوت سميث)، وكانت تلك الكسور الفردية سهلة الشفاء .

ولقد عرفت الجبائر واستعملت من قبل عهد الفراعنة وعثر على كثير منها فى مقابر الأسرة الخامسة ، وكانت تتكون عادة من قطع من الخشب أو القشرة أو الكتان تتصل كل منها بالأخرى بوساطة أربطة ، مبطنة بالكتان ، وكان العضو يحاط

بها كالأسطوانة . وكانوا يراعون فى ربطها أن تشمل المفصلين أعلى الكسر وأسفله . ولم يعرف المصريون مزايا الشد التى فطن إليها الإغريق بعدهم ، إلا أنهم كانوا يردون الكسور والخلوع فى مهارة فائقة ، كما هو ظاهر من صورة عمارة ابى ومن الإرشادات الواردة فى لفافة إدوين سميت الخاصة بكسور الترقوة والأنف وخلع عظمة الفك .

ولكن الكسور المفتوحة لم تعالج بهذه القدرة من النجاح ، فإن معظم ما وجد فى الجثث لم يلاحظ فيه أى تغيير حيوى .

وكانت الحروق تعالج بالعسل والزيوت والمواد الدهنية مصحوبة بالتعاويذ ، كالحوار بين ايزيس والرسول الذى ذكرناه فى باب السحر .

الأورام :

ودرست فى لفافة إبرس التى جاء فيها وصف الأورام الدهنية والفتق والتمدد الشريانى ، والتى أوصت عند فحصها لجسمها لمعرفة ما إذا كانت تموج ، فإذا كانت متموجة وجب حسبانها سائلة أو دهنية . وقد جاء بها وصف يتفق والجمرة الخبيثة أو السرطان ؛ ومنها ما هو أبشع ، وهى التى تظهر

منها البثرات ويتلون الجلد وترتسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاما شديدة ، فقل عنها : إنه ورم الإله خونسو ، ولا تفعل شيئا.

وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير ويستعملون لهذا الغرض حجر منف ، وهو نوع من الرخام مخلوط بالخل . ومثل هذا المزيج يتصاعد منه غاز حمض الكاربونيك الذى له خواص تخديرية محلية ، أما إنهم كانوا يرقمون الأعضاء بأعضاء أشخاص آخرين — كما قال البعض — فهذا خيال لا يستند إلى أى دليل .



العــــلاج

وقد اطلع القارىء على كثير من أساليب عـلاج أسلافنا يحسن أن نستطرد فنلق نظرة عامة على تلك الطرائق .

ولنبدأ بالعقاقير ، فلعل استعمالها يعتبر مثلا طبياً لازدواج الاتجاه الطبي المصرى تحت تأثير النظريات الدينية من جهة ، والنزعة التجريبية التى امتاز بها المصريون من جهة أخرى . .

كانت معلومات الأطباء والكهنة ومن إليهم من المتطببين فى الكيمياء متقدمة . وقد ورثنا منهم أسماء مواد ونباتات عديدة وصلت الينا كما هى ، منها نبات (بن) الذى يستخرج منه زيت البان ، وكلمة gum أى الصمغ المأخوذة من (كميت) التى تحورت فى اللغة القبطية والإغريقية إلى كومى . . . وقد قيل إن كلمة (أمونيا : النوشادر) أصلها من آمون (أى ملح واحة آمون أو سيوة) ، بل إن كلمة (كيمياء) أصلها (كمت) وهو اسم مصر فى هذا الزمن .

وكانت تلك المعلومات تيسر لهم تجهيز المراهم والأقراص

والأشربة وغيرها من الأدوية ، وكان تركيبها مرتبطا دائما بالدين يجرى فى معمل خاص فى المعبد اسمه (أسيت) طبقا لطرق سرية وطقوس جامدة ونسب معينة ، تقدر بالكيل لا بالوزن .

وقد جاء ذكر ما يقرب عن ٥٠٠ نوع من المفردات ، منها :

١ — المواد المعدنية :

المواد المعدنية مثل الحجارة الكريمة (وبخاصة الفيروز) والذهب ، والفضة (للطلاسم والأحجبة) ، والشب وأملاح انتموان وكاربونات النوشادر والجير وكاربونات الجير وصدأ النحاس (الزنجار verdigris) وأملاح الحديد والمانيزيا وسلفات الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاس والصودا والنطرون .

وإذا استثنينا تلك الأصناف التى استعملت لغلائها كالذهب والحجارة الكريمة (التى ما يزال الهنود والفلكيون يعزون إليها قيما خفية ترتبط بالأفلاك) فإن أغلب تلك المواد فعالة ومستعملة إلى اليوم ، فالشب قابض وموقف للنزيف ، وكاربونات الجير معادل للأحماض وملطف للجلد ، وصدأ النحاس يعالج به الرمد ، والمانيزيا ملينة ، وأملاح الرصاص مرطبة للالتهابات السطحية وتستعمل فى علاج الكلم وما إليه .

٢ — النباتات :

ولعلهـــا تكوّن أهمّ جزء من أقرابازينهـــم ؛ وقد عرفت مداولاتها أولاً من النقوش (حيث رسمت — فى بعض الحالات — بجوار أسمائها) ومن المقابر حيث عثر على بعضها ، مثـل الخردل والخشخاش ، ومن النصوص القبطية ، ولـكن الـكثير منها لا يزال غامض المعـــنى وخصوصاً بعض الأسماء كانت سرية . ومن الأنواع المعروفة : السنط والأبسنت (وهو طـارد للأرياح ومنبـه للقـلب) ، ورجـــل الذئب Acanthus mollus والصبر والسنامكة (ولها فوائد ملينة محققة) واللوز (ملطف وملين) والشبت والأنيسون والبابونك والـكمون وحب الهال (الحبهان) والنعناع وجوزة الطيب وحبة البركة (وكلها طاردة للأرياح وهاضمة) وشعر الجن والخروب (كان يستعمل لتقوية الباه وطرد الديدان وتحلية الأدوية) والقرطم والشئم (وهو مايزال يستعمل فى ريفنا وفى السودان لعلاج الرمد) والـكولشيك (وهو أنجح وأسرع عـلاج لنوبة النقرس) ، وعدة أنواع من النبات من فصيلة القرع (والـكثير منها طارد للديدان أو ملين) والهندباء والحلبة (وصفت لإزالة علامات

الشيخوخة) والتين والعرعر (وهو مدر ومطهر للبول) والجنطيان (منبه للشهية وهاضم) والأرمان (قشره كان ومايزال يستعمل لطرد الديدان) والسكران (مفيد لعلاج المغص وحصى الكلى وتقلصات العضلات والأمعاء) والحشيش واللفاح (مسكنان) والكتان والزئبق والخردل والمر والعفص والزعفران ، وبصل العنصل (مقوٍّ لعضلة القلب ومدرٌّ للبول والبولينا) والأشماع والاشتراك (لبنى الرهبان) والتربنتين لطرد الديدان (وهو مفيد وكان شائع الاستعمال حتى وقت قريب) وغيرها . وفى العقاقير النباتية ورد عن فوائد الخروع باب كامل فى لفافة إبرس ، فقد جاء فيها : « لمعرفة ما يصنع بنبات الخروع (حسبما وجدنا فى الكتابات العتيقة وهو شيء مجدى استعماله) ، إذا سحقت جذوره فى ماء ووضعتها على رأس مريض فإنه يبرأ فوراً كالسليم . وإذا مضغ المصاب بالإسهال قليلا من بذره وتناول معه الجعة طرد المرض من باطنه . وإلى هذا فإن شعر السيدات ينمو تحت تأثير البذور : فهى تسحق وتمزج بالزيت ويدهن الشعر بها ، ثم إن الزيت فى بذرتها يستعمل لدهان من يشكو من الأنف . . . من رائحة كريهة ، علاج ممتاز حقا جرب عدة مرات .

المواد الحيوانية :

العسل ولبن البقرة والحمارة والماعز والمرأة ، ولقد اعتبروا فى جميع عصورهم أن لبن النساء عامة أرقى من لبن الحيوان ولكنهم كانوا يحـــلون فى المرتبة الأولى لبن المرأة التى أنجبت طفلاً ذكراً ، وبعـــدهم فإن أبقراط أوصى أيضاً باستعماله كما أوصى الأقباط وعرب مصر من بعده .

ولما كانوا يعتبرون هذا اللبن سائلاً ثميناً حرصوا عليه ووضعوه فى أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولداً وقرناً كالذى كان يستعمل للحقن الشرجية أو المهبلية ، وقد استنتج علماء الآثار من النحافة الشديدة الظاهرة فى أسفل جسم هذا الطفل أنه يمثل الطفل الهزيل الذى رزقت به إيزيس من أوزيريس والذى كان بالغ الضعف لأن أوزيريس أتى زوجته بعد وفاته .

ومن المواد الحيوانية الأخرى كبد الثور والعجل والخنزير . وكان يستعمل لشفاء غشوة الليل ، وقد دلت البحوث الحديثة أن غشوة الليل ناشئة فى أغلب الأحوال من نقص فى فيتامين (ا) الذى يتوافر فى هـــذه الأنواع من الكبد . ومن الأدوية التى

استعملت أيضاً لعلاج غشوة الليل — وقد تبعهم فى ذلك أطباء الأقباط — روث الوطواط وبوله، وقد قال «ليفبر» دون أن يذكر مرجعه : إنه ظهر من التحليل أن روث الوطواط يحوى كميات كبيرة من فيتامين (أ) ولم تنته قائمة علاجاتهم الحيوانية عند هذا ، بل استعملوا أيضاً بعض الأسماك وصفراءها ومخ الحيوانات وشحمها وشعرها وإفرازتها وفضلاتها ؛ وإذا كان الكثير من تلك المواد لهفوائد علاجية أكيدة ، فإن هناك مئات الأصناف التى يبدو لنا استعمالها غريباً أو سخيفاً . أذكر منها على سبيل المثال : شعر التيس وسن الحمار وروث فرس البحر وغسالة الغسالات ، وقد عدت من بين تلك الأصناف البقول المعطنة التى وصفت مع الدقيق لعلاج الإكزيما مع الدقيق والقشرة التى تغطى خشب السفن المغمورة لرفع الرحم إلى محله . ولعل المصريين القدامى فطنوا إلى أن تلك المتعطنات تحوى الكثير من المواد المطهرة الممتازة ، فما هى فى الحقيقة إلا مزارع من الفطريات ، وهى الفصيلة النباتية التى استخرج منها (فلنج) وأتباعه البنسلين ثم الأستروبتوميسين والتراميسين وسائر أنواع المضادات الحيوية التى يعدها الطب أبهر تقدم حققه القرن العشرون ، وقد أوصى الإغريق ، وكذلك أطباء القرون الوسطى ، باستعمال المتعطنات

وقد لا يخلو من المغزى أن تلك العلاجات كانت مخصصة لأمراض تنتج من التلوث بالميكروبات ، التى قد تبديها تلك الفطريات . ولا يتحتم علينا — لمجرد أن باستور لم يكن قد اكتشف الميكروبات بعد — أن نحكم على تلك الحكمة الشعبية بأنها كانت من ضروب السحر والفولكلور ، وإنما يجب أن نسلم بأنها كانت على الأغلب مبنية على التجربة ليس إلا .

وبالمثل فإننا إذا قلنا — عن كل ما يبدو لنا غريباً فى تلك الوصفات — إنه مخيف أو خيالى أو سحرى ، كان هذا حكماً على المدلول الظاهر للأسماء الواردة ، ولعل حكمنا هذا جائز إذ أن بعض تلك المدلولات ليست هى المعنية بالذات ، فلا يعقل مثلا أن يدخل رأس الحمار فى مرهم أو أن تستعمل ريشة الإله تحوت أو أن يذاب سن الحمار فى الماء ... وكل هذا ورد ، ولذا وجب علينا أن نتأمل أولاً لعل تلك الألفاظ أسماء سرية للعقاقير لا يعرف مدلولها إلا العارفون ، أو أوصاف شعرية أو تشبيهية لبعض النباتات الطبية . وكلا الفرضين له ما يبرره ، فمن المعروف أن بعض المواد كانت لها أسماء سرية حتى القرون الوسطى مثل الـ green dragon لسلفات النحاس وغيرها من الأسماء التى استعملها الكيماويون الذين حاولوا تحويل المعادن إلى الذهب

والتى لم يكتشفوا مدلولاتها إلا لمعشرهم كشفاً تدريجياً بعد كل خطوة من خطوات قبولهم فى طائفتهم السرية .

وهناك من جهة أخرى مفردات عدة ، ما تزال تحمل أسماء خيالية أو تشبيهية مثل : رجل الذئب acanthus mollus ، وشوك الغنم abutilon avicennae وكف النسر scolopendrium (العقربان أو سقولوفندريون) وتراب اليابان catechu وفسى كلاب chenopodium morali ... الخ. وإننا إذا ماقرأنا ما كتب عن استعمالها فلا يخطر أبدا فى أذهاننا أن المقصود بها هو حقا رجل ذئب مفترس ، أو كف نسر يطير ، أو تراب من أرض اليابان ، أو ريح من خلف الكلاب .

ولذا يجدر بنا أن نخفف من حكمنا وأن نسلم بأن بعض تلك الألفاظ تسميات خيالية أو سرية لمواد علاجية معقولة وفعالة . ومن أمثال تلك الألفاظ ذيل الفأر وأذن الضبع ولسان البركة والقذارة التى تتجمع تحت أظافر المرضى وفضلات الذباب على الجدران وجلد من عند صانع الأحذية وماء غسالة الغسالين . ولقد توصل اللغويون إلى فك بعض تلك الألغاز التى زادت فى صعوبة تفسير النصوص ، فقد عرفوا مثلا أن الأبسنت كان اسمه قلب الرحم ونبات الكروكوس هو دم هرقل ... الخ .

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه على شكل شراب أو مغلى أو منقوع أو حبوب أو مسحوق أو لعوق أو لبخة أو لزقة أو قطرة أو مرهم أو تبخير أو لبوس أو غسول شرجى أو مهبلى ، حتى إن الكتابة الهيروغليفيـــة للطبيب كانت مكونة من المفصد والهاون . ولم يعتادوا كتابة الروشتات (التذاكر) للمرضى والغالب أن قطع الخزف ostraca التى وصفها جونكير والمكتوب عليها وصفات أدوية كانت فى الحقيقة مذكرات يدونها الطبيب بجانب المريض لتذكره فيما بعد بنوع الدواء الذى عليه أن يركبه عند عودته إلى منزله .



فروع التخصص

كلمة عن الولادة والرمد وبعض فروع التخصص .

وأقول التخصص عن عمد . ذلك (إن صدق بعض المؤرخين أمثال هيرودوت) أنه تعدّى المعقول أو المتوقع ، حتى إن المصريين منذ ٥٠٠٠ سنة بزوا فى ذلك معاصرينا عبر البحار . وقد قال هيرودوت : إن مصر وطن الإخصائيين وإن كل طبيب فيها يقصر علاجه على نوع واحد من الأمراض ولا يعالج سواه ، فبعضهم يعالج العيون ، والبعض يعالج الأسنان أو البطن ... هذا ولو أن بعض الأطباء ادعى التخصص فى علاج جميع الأمراض ، مثل (إيرى) الذى ذكر على شاهد قبره أنه طبيب وعميد أطباء البلاط ورمدى وإخصائى المعدة والأمعاء والشرج .

ومما يؤكد ما رواه هيرودوت ماورد من الألقاب على مقابر كبار الأطباء ، ومن تلك : لقبان أثارا الدهشة والحيرة وكثيرا من الجدل حول تفسيرهما . أولهما التسمية الغريبة « راعى شرج فرعون » . ! هل ضاق نطاق التخصص حتى تحدد إلى تلك الرقعة الضئيلة من الجسم ؟ أم هل كان هـذا الراعى مجرد مساعد يوكل

إليه تركيب الحقن الشرجية ؟ أم إنه كان إخصائيا في الأمراض المعوية عامة كما جاء في كتابة إبرى ؟ ولا يقل اللقب الثاني غرابة عن الأول فهو « إخصائي في الأمراض المجهولة » وقد فسر جزافا بأنه يعبر عن أن صاحبه إخصائي في الأمراض الباطنة أي ذات الأسباب المستخفية .

وقد ضاق بعضهم بذلك فرجح أن بعض هؤلاء الإخصائيين في علاج مرض واحد لم يكونوا سوى صناع في بعض المهن الطبية .

الولادة :

ومن فروع التخصص ، الولادة ، وكانت تقـــوم عليها قابلات تلقـّين فنـّهن في مدارس خاصة كمدرسة سايس ، وقد مثلت الولادة في كثير من المعابد في قاعات خاصة سميت بقاعات الولادة والطفولة، وصورت فيها الوالدة ساجدة ، ووراءها ثلاث نساء ، هن الإلهة (نيث) ومساعدة لها ، ومتفرجة تحمل علامة الحياة (عنخ) ، وأمامها القابلة تستقبل الطفل ، والخادمة التي تتعهد المولود بالرعاية في طوره الأول .

وكانوا يعرفون أن الأصل هو المجيء بالرأس كما هو ظاهر من تلك الصور ، ومن الحرف الهيروغليفي الدال على الولادة ،

وهو يمثل الحبلى ساجدةً ـــ والوليد خارجاً من تحتها برأسه وذراعيه ، إلا أن هذا الرأس وهاتين الذراعين رأى فيهما آخرون بقايا حرف (مس) ومعناه الولادة .

وقد وردت عبارات تشير إلى جلوس الأم فى أثناء الولادة على القرميد (الطوب الأحمر) (وقعدت كالوالدة على القرميد ، أنظر لفافة تورينو) ، كما أن محل الولادة فى كتاباتهم صور بعلامة الولادة وبحجرين للتخصيص . وروت التوراة أن فرعون أصدر فى صدد قتل أولاد اليهود الأمر الآتى : « وانظروا إلى الحجرين ، فإذا كان الطفل ذكراً فاقتلوه » وكل هذا يشير إلى أن المرأة المصرية كانت تلد وهى راكعة على حجرين بينهما فراغ ، وهو تركيب يشبه كرسى الولادة الحالى . على أنه لم يصل إلينا سوى كرسى واحد كشف فى القرنة فى مقبرة (خيموزى) قال عنه البعض : إنه كرسى لقضاء الحاجة ، وقال الآخرون : إنه إنما كان مخصصاً للولادة .

وروى بردى وستكار قصة امرأة وضعت ثلاثة توائم ، وأوضح كيفية قطع الحبل السرى وغسل الوليد . . . وأضاف أن الأم عادت إلى شئون بيتها بعد أن ظلت تطهر نفسها أربعة عشر يوما . وكانت أم الوليد ترضعه فترة طويلة تصل إلى ثلاث

سنوات ، ولم تكن المرضعات المحترفات تستخدمن إلا لدى الأسر الثرية . وفى بردى إبرس عدة توصيات بملاحظة جودة اللبن عن طريق الشم وبعض القواعد التى يمكن التكهن بها على مصير الطفل . . . هل سيعيش أو سيموت ، ووصفات لعلاج اضطرابات التسنين وأمراض الأطفال .

وقد تناولت خمس من اللفافات المعروفة أمراض النساء ، وهى تكاد تتشابه تشابهاً تاماً فيما جاء بها عن هذا الموضوع ، مما يوحى بأنها كلها نقلت عن أصل واحد ، وقد يكون الجزء الخامس عن الموسوعة التى ذكرها كليمان الإسكندرى . وكانوا يعتقدون أن أعضاء الحوض عائمة فى التجويف الباطنى متجولة فيه ، فكان يتحتم على أطبائهم فى حالة المرض إغراؤها على الرجوع إلى محلها بأن تقف المريضة ويبخر تحتها بشمع معطر .

ومن المؤكد أن الزواج المبكر والولادات المتعددة فى سن حديثة ، وحدوث الولادة بمساعدة القابلات واستعمال المواد الكريهة ، من المؤكد أن هذه ضاعفت عدد أمراض الحوض فى مصر القديمة . ومن تلك الأمراض التى يبدو أنها كانت منتشرة ، سقوط الرحم ، وقد عالجوه بالتحاميل ، والتبخيرات المهبلية بالتربنتين أو الغائط المجفف أو بتمثال لـ (أبى منجل)

متنوع من الشمع ، أو بحقن المهبل بعصير نباتات معينة .
وكانوا — بلا مراء — يكشفون كشفاً نسائيا كاملا على السيدات بما أنهم وصفوا التهاب الرحم وتوسع عنقه وعالجوه بأنواع من عصير بعض النبات . أما المرض الذى أسموه آكل الرحم (السرطان) فكان علاجه موضعيا .

وقد عزا المصريون إلى مرض الرحم أعراضا عدة مثل الآلام فى أسفل البطن والرقبة والأذنين وأمراض العيون والنوبات العصبية . وحدد بردى كاهون ملازمة تشمل التهاب الرحم وآلام المفاصل والعينين ، ولعل هذا المرض هو السيلان الذى كثيراً ما يحدث التهاباً موضعياً وروماتزماً مفصلياً والتهاباً بالعينين .

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف لعمل الحقن الشرجية والمهبلية . ومما يرجح أن هذا هو الغرض منها ما جاء بصدد إحداها : « يعمل معجون من العسل والزجاج المدقوق لإفراغ كل ما فى داخل المرأة » ، وقد ورد ذكر اسم تلك الآلة فى باب العلاج .

الصلع :

يقول هيرودوت إن الصلع كان منتشراً ، وقد كان إمينوفيس

الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني أصلعين . وكانت الملكة نفرتاري تلبس شعراً مستعاراً . وكانوا يعالجونه بزيت الخروع — ويستعمل لهذا الغرض إلى اليوم — مخلوطاً بأدهان فرس النيل والتمساح والقط والثعبان والتيس البري ، وكذلك بمخالب الكلب وحافر الحمار ودم الثور وأحشاء الشيلان والأعضاء التناسلية للكلبة وقذارة الأظافر وغائط الذباب ، ولنذكر أن ديوسقوريدس استعمل رأس الذباب لمثل هذا الغرض .

ووصفوا (الثعلبة) وعالجوها برقاهم وبتعاويذ موجهة إلى الشمس ، التي كثيراً ما صورت على شكل شخص يمسك بشعر عدوه قبل أن يذبحه .

الزكام :

وصفت أعراضه وصــفاً دقيقاً في التعويذة التالية : « انصرف يا ابن الزكام الذي يكسر العظام ويهشم الجمجمة وينخر المخ ويصب المرض في فتحات الرأس السبع » (دموع العينين ، مخاط فتحتي الأنف ، ألماً في الأذنين ، التهاباً في الفم) . وكان دواؤه لبن امرأة وضعت ذكراً وصمغ ، الخ . . . وما تزال نساؤنا تصفن لمــلاجه اللبن واللبان والعسل والملطفات .

الأسنان :

ذكر لنا هيرودوت من بين من ذكرهم من الإخصائيين إخصائيّ الأسنان ، وكانوا على درجات مختلفة ، فمنهم الطبيب العادى أمثال « من قورع عنخ » الذى جاء ذكره فى مصطبة « نى عنخ سخمت » طبيب الفرعون ، ونفريوتيس الذى ذكر فى مصطبة « سيشات حتب » مما يدل على مركزهما الثانوى بالنسبة إلى صاحبي المقبرتين ، ومنهم رئيس الإخصائيين مثل « حيزيرع » و « بساميتك سنب » .

ومع أن « التسويس » كان قليل الانتشار فإن (البيوريا) والخراجات كانت منتشرة لا سيما فى العصور القريبة ، وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة وزيادة الترف حتى فى الطبقات العليا كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث الذى قال عنه إليوت سميث على سبيل الدعابة — بعد أن استكشف غشاء من الطرامة حول أسنانه وخراجين تحتها — : « لم يواجه فرعون فى ترف طيبة دسائس الكهنة فحسب ولكنه كان ضحية لآلام أسنانه أيضاً » .

وفى حالة حدوث التسويس كانوا يحشون الأسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس ، وكانت الأسنان القلقة تربط

بالأسنان المجاورة لها بخيط من الذهب . وتدل جمجمة من الأسرة الثانية عشرة أن الخراجات كانت تصفى بوساطة تربانة صغيرة فى عظم الفك .

الرمد :

لا جديد تحت الشمس ، لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار كما هو شأنها اليوم . وكان عدد المكفوفين كبيرا ، وكثيراً مانجدهم ممثلين فى النقوش وهم يزاولون الغناء أو الموسيقى ، وربما كان تدريبهم على مثل تلك الفنون نوعاً من التأهيل المهنى ؛ ومن الأسماء التى أطلقوها على العمى وصفهم المكفوفين بأنهم يرون الظلام فى وسط النهار . فلا غرابة إذن أن تجد مائة وصفة فى لفافة إبرس ، من بينها واحدة تنسب إلى آسيوى من بيلوس . وقد نقل بردى كارلزبرج بعض هذه الوصفات .

وكانوا يسمون الحدقة (الفتاة التى فى داخل العين) .. وهذه التسمية مثلها فى اللغة اللاتينية (Pupilla) أى الفتاة القاصر ، وفى اللغة الأسبانية (Nina de los ogos) وكانوا يحسبونها منبع الدموع .

ومن الأمراض التى وصفوها وعالجوها التهاب الجفون . عالجوه بنقط من الصبر والنحاس وورق السنط تقطر فى العين بواسطة ريشة نسر ، ومنها مرض الشعرة .

وكان يعالج بتعديل وضع الرمش أو بنتفه ثم يوضع مرهم مصنوع من دم البرص والخفاش وصفرة العصافير ، والدمل (الشحاذ) ، وانقلاب الجفن للخارج (وعلاجه المواد القابضة) والرمد الحبيبي ، وكانوا يعالجونه بالجرانيت والنطرون الأحمر المحروق وكبريتات الرصاص ، والصنفر وعلاجه بيض الرخم وحجر الصوان الأسود وغائط البجع والتمساح ، و (دهن العين) وهو فى الأغلب الـ (Pinguecula) وتعدد الحدقة والعشية ، والدموع والسحابة (البياضة) التى أصيبت بها الملكة نفرتيتى آية الجمال . أما الكترا كتا فقد أسموها « صعود الماء إلى العينين » ونحن نسميها اليوم الماء الأبيض (كما أطلق عليه الإغريق والرومان اسم الماء الأبيض) وعلة هذه التسمية أن المصاب بهذا المرض ينظر وكأن سائلا يحول بينه وبين رؤية الأشياء .

وكان مرض الماء هذا يعالج ببعض المراهم والتعاويذ ... ولم يقدر له أن يعالج بالجراحة فى مصر إلا فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وكان ذلك فى الإسكندرية حيث نقل (أنتيل) الطريقة الجديدة عن كريزيب القبرصى .

وجاء فى لفافتى إبرس ولندن ذكر مرض « غشوة الليل » ، وكان يعالج بالسحر وبكبد البقر بعد تدخينه ، وهذا العلاج ليس

خياليا لأن الكبد يحوى كميات كبيرة من فيتامين (أ) وهو أحسن علاج لهذه الحالة كما ورد فى إيرس ، علاج فقدان البصر بوضع ماء عين خنزير فى الأذن وترتيل تعويذة فحواها أن العين تستبدل بالعين .



الصحة العامة

مـاذا لحـق بمصـر

يقول هيرودوت إنه — حين زار مصر فى القرن الخامس ق . م . — أعجب بحالة المصريين الصحية وإنه وجدهم أسلم الناس بدناً بعد الليبيين . . فكيف يمكن تقبل هذا الزعم مع الانحطاط الذى وصل إليه المستوى الصحى فى القرن الثامن عشر ؟ . . كان هيرودوت قوى الملاحظة ، ثاقب البصيرة . ولقد دلت عدة دراسات حديثة على أنه كان صادقاً وهو يدون ملاحظاته الشخصية عن البلاد التى زارها ، غير مكتف بالاستماع إلى الأقاويل . فهل خدع مع ذلك بمظاهر زائفة ؟ أم قاس على بلدته هاليكارناسوس فى آسية — حيث كانت الملاريا متفشية — مصر التى كان هذا المرض فيها أقل انتشاراً ؟ أم أن تدهوراً فى الصحة العامة حدث فى العصور التى تلت . . . ولعلنا نجد تفسير ذلك فى الكلمة التى قالها نابليون ، « ليس لإدارة فى بلد من البلاد أثر أقوى وأعمق منه فى مصر ، فإذا طهّرت القنوات .. وإذا طبّقت لوائح توزيع المياه . . وصلت

مياه الفيضان إلى مناطق سحيقة ، وأدى ذلك إلى مضاعفة الإنتاج . إن الحكومة الفرنسية لا تملك سلطاناً على المطر أو الثلج ، ولكن الحكومة المصرية تسيطر بشكل مباشر وحاسم على مدى وصول مياه النيل إلى مناحى مصر المختلفة . . ومن هنا التناقض بين ما حققه هذا البلد من ثراء فى عهد البطالمة ، وبين ما رزئ به من إفلاس عندما رزح تحت نير الحكم العثمانى » .

وقد أكد المؤرخون — اللاحقون بهيرودوت — العناية الفائقة التى نالتها الصحة الفردية والصحة العامة فى مصر القديمة . قال ديودوروس الصقلى عن أسلوب حياة المصريين : يبدو كأن منظمه كان طبيباً رتبه وفقاً لمقتضيات الصحة لا مشرعاً وفقاً لقوانين .

وكانت تلك العناية تتناول المصرى من مهده ، فلقد كان الطفل يرضع لبن أمه أو مرضعة ثلاث سنوات ، وكان يوصى بفحص اللبن لمعرفة صلاحيته بشم رائحته التى شبهت ، إذا كان صالحاً ، برائحة الخروب . ثم كانت تبذل فى سبيل صحته عناية قصوى تتبين جلياً لمن يتصفح اللفائف إذ أنها مليئة بالوصفات الخاصة بتبوله وسعاله وزكامه . . الخ ، أما التوعك الذى يصحب ظهور الأسنان فإنه كان يوصف له أحياناً دواء غريب ،

وهو أن تبتلع الأم أو الطفل فأراً مطهيا وأن توضع عظام هـذا الحيوان حول الرقبة فى قماش من الـكتان عقدت فيه سبع عقد . وقد وجد إليوت سميث عظام فأر داخل الجهاز الهضمى لطفل فى نجع الدير ، الأمر الذى يؤكد استعمال تلك الوصفة . وقد تبع المصريون فى ذلك ديوسقوريدس إذ أنه أشار بالوصفة نفسها لعلاج سيل اللعاب واضطرابات التسنين عند الأطفال . وبعده الإغريق والرومان والأقباط والعرب وأطباء القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين فى انجلترة حيث يوصف هذا الدواء إلى اليوم فى بعض الأقاليم . أما عملية الختان فـكانت تجرى فى الطفولة (انظر باب الجراحة) .

وكان الزواج يتم بمجرد البلوغ ، مما جنب المراهقين الـكبت الجنسى وما ينشأ عنه من عقد وأسهم فى وضع المجتمع على أسس عائلية صحيحة . وكان زواج الأخ من أخته بل الوالد من ابنته مقبولاً ، بل محتما فى القـدم : ويروى التاريخ أن أوزيريس تزوج بأختـه إيزيس وأن نفتيس اقترنت بأخيها سيت . وقد احتفظ الفراعنة بتلك العادة تقليداً للآلهة وحرصاً على صفاء سلالتهم . وهم — إما لعدم إدراكهم فى أول أمرهم لدور الزوج فى تـكوين الجنين ، إما بغية التأكد من صفـاء انحدار

السلالة — لم يعترفوا بالوراثة إلا عن طريق الأم ، فكان يتحتم على فرعون أن يكون من أم هى بنت فرعون ، وبالتالى أن يتزوج أيضاً من بنت فرعون حتى يكسب ابنه حق الجلوس على العرش ، فإذا كان من أبناء فرعون من تزوج بأخته ، وكان غريباً كحورمحب أو توت عنخ آمون الذى تزوج بابنة فرعون ، وكان له بعد ذلك أن يتزوج من يشاء . ولذا تكثر فى ألقاب الملكات عبارتا « الزوجة الملكية والأخت الملكية » الخاصتان بالزوجة التى من سلالة فرعون . وكان لهذا الاهتمام بنقاء السلالة سبب سياسى دينى هام ، وهو أن فرعون كان سلطاناً بحكم انحداره من الشمس فكان يتحتم عليه أن يحقق هذا .

وقد عاب الإغريق هذه العادة على المصريين زاعمين أنها تنافى أبسط القيم البشرية ، وما يزال الاعتقاد سائداً حتى الآن بأن هذه العادة تُجمِّع العوامل الوراثية الضارة فتعرض لظهور الأمراض الخلقية أو تضاعف من وطأتها فتضعف النسل . ولكن روفر قال بعد دراسة مستفيضة إنه لا أثر لمثل هذا الانحلال فى الأسرة الثامنة عشرة وهى التى أنجبت أكبر تسعة ملوك ، ولا عند البطالمة . والحقيقة هى أن الزواج من الأخوات يبرز لوناً من الانحراف الخلقى فى السلالة نافعاً كان أم ضاراً .

وكان تعدد الزوجات مباحاً . . وكان للرجل أن يقتنى الجوارى . . غير أن الزواج بأكثر من زوجة كان محرماً على الكهنة ، فقد كانت الظروف الاقتصادية تحد من هذا التعدد ، بحيث اضطر أغلب المصريين إلى الاكتفاء بزوجة واحدة .

وقد جاء ذكر البغاء الرسمى الذى أنشىء تسهيلاً لغير المتزوجين والجنود والمسافرين — وإلى جانب هذا وجد عالم الراقصات والمغنيات اللاتى مثلن على التخوت وجاء ذكرهن فى القصص وفى نصائح الحكماء إلى الشبان (ومنهن كانت راقصات آمون اللاتى لم يكن نماذج للفضيلة وكن يترددن على المحلات المشبوهة) . وقد رأى البعض فى هذا دليلاً على الاعتراف ببغاء مقدس فى المعابد (كالذى وجد فى بابل وفى الهند) على أنه لم يعثر على أى أثر فى المعابد أو المخطوطات يؤكد هذا .

الرياضة البدنية :

وكانوا يعرفون قيمة الألعاب الرياضية فى تكوين الشباب ويهتمون بممارستها وعلى رأسهم فرعون الذى كانت الحرب أهم شواغله الأمر الذى اقتضى التدريب على ألعاب القوى منذ الطفولة استعداداً لها . وإنا لنقرأ أن رمسيس الثانى فى شبابه مع

زملائه ، كانوا دائبي التمرين ، وأنه لم يكن يصرح لهم بتناول أى طعام قبل أن يتسابقوا مسافات طويلة . وقد وردت تفاصيل عن تدريب الأمراء والفراعنة على جدران حجرتين: إحداهما لتحوتمس الثالث والأخرى لابنه خبررع الذى خلفه على العرش باسم أمنحوتب الثانى ، والذى كان — حسبما ورد فى تقرير الأطباء الذين تفحصوا مومياه — ذا قوة فذة ، إذ قيل عنه إن ذراعه ثقيلة وإنه لم يُعرف من بين جنوده أو مشايخ البلاد أو كبار (رتنو) من يقوى على شد قوسه .

وكان على المحارب أن يتدرب على التجـــديف والرماية والفروسية . . قالت المتون عن الأمير خبررع : « .. إنه كان صلب الذراع ، وإذا ما أمسك بالمجداف وأدار دفة الزورق على رأس مائتى بحار ، فهو لا يعرف التعب ، بل ما يزال يُعمِل بمجدافه الذى طوله عشرون ذراعاً عندما تقرب المركب من مرساها بعد نصف أتور (مسافة) ، بينما يكون التعب قد نال من البحارة كل منال » . وقيل عنه فى الرماية : « . . . وشد ثلاثمائة قوس صلبة لامتحانها لتمييز الصانع الغبي من الماهر . وبعد أن اختار لنفسه قوساً لا عيب فيها ولا يقدر غيره على ثنيها ، دخل المرمى الشمالى

على ركابه ، مثل (مونتو) فى جبروته ، فرأى به أربعة أهداف من نحاس آسية ، سمك كل منها راحة يد ، ووضعت بحيث تفصل بين كل اثنين منها عشرون ذراعاً ، فأمسك بقوسه ، وانتقى أربعا من النشاب ، وأسرع نحو الأهداف وهو يرمى بالنشاب مثل (مونتو) فيخترق كل سهم الهدف ويسقط من خلفه ، ثم يعالج التالى . وهذا مالم يقدر عليه أحد سوى الملك الشديد البأس الذى نصره آمون » هذه الرواية ، التى رويت أيضاً عن أبيه (منخبر رع) تذكرنا بما رواه هوميروس فى الأوذيسة — بعد تحوتمس بألف سنة — عن أوليسوس بعد ما عاد من مغامراته ولم يعرفه أهله إلا عندما شد قوسه التى لم يكن غيره يقوى عليها .

أما شغفهم بالفروسية فظاهر من رواية أخرى عن الأمير نفسه — قبل أن يقوم بأعمال (مونتو) . فإنه برع فى ترويض الخيل — وعندما ترامت إلى أبيه (منخبر رع) الرهيب أخبار مهارته ، سر لها وازدهى بها وأمر أن يعطى أحسن الخيل التى فى حظائره ليدربها ويقويها ، فجعل منها الأمير الشاب خيلا نادرة المثال لا تعرف للتعب معنى . ومن الروايات الأخرى الدالة على ولوعهم بالخيل أن رمسيس الثالث كان يتفحص خيله بنفسه

يوميا وأن (بيانكى) عندما فتح بلدة (خمونو) وقهر الأمير (نمارت) زار الحظائر ووجد خيلها فى حالة هزال شديد نتيجة للحصار الطويل الذى فرضه على البلد ، فحنق على عدوه وقال له : « بقدر ثقتى بأنى حى ، وأن أنفى شامخ فى الحياة وأنى أحب رع أقول إن تجويعك الخيل أقسى على قلبى من أظلم عمل أتيت به ... أما تعلم أن الإله بسط ظله علىّ ؟ ... لقد ولدت من بطن إلهى ، إن البذرة الإلهية فى » .

ولم يقف الفراعنة عند هذا الحد ، بل كانوا مولعين بالقنص فنجدهم يقطعون مسافات طويلة ليقتنصوا الوحوش التى اختفت إذ ذاك من وادى النيل . ونرى (من خبررع) ذاته أنه يذهب إلى وادى الفرات ، حيث يهاجمه قطيع من مائة وعشرين فيلا يتوجه أضخمهم نحوه فيعرض حياته للخطر ، ويكاد يفتك به لولا زميله آمنحتب الذى قطع خرطومه . . ولم يذكر (من خبر رع) هذا التفصيل فى الرواية الرسمية التى أمر بنقشها على الحجر فى (نباتا) مع أنه قال فيها : « رويت هذا دون كذب » ولم تكن تعرف الحقيقة لو لم يروها آمنحتب نفسه ...

وكذلك نرى رمسيس الثالث فى تصاوير مدينة حابو يصطاد الأسود بالسهام والرماح . . وهناك تصاوير أخرى تبين كيف

كانوا يقتنصون الثيران الوحشية وغيرها من الوحوش كفرس البحر . الخ ،

أما الجمهور فإن ألعابه لم تكن أقل تبايناً . ونجد صورها فى مقابر بنى حسن (شرق المنيا) ، تغطى جدرانها ، منها ألعاب الكرة ، والمصارعة بمختلف حركاتها ، وسكناتها ، وألعاباً تذكرنا بما نسميه اليوم الرقص و « الجمباز » الإيقاعى ، وتلك الصور جديرة بأن يدرسها المختصون ويقارنوها بالمصارعة الحديثة ، فقد يكشفون أن الكثير من الجديد مستمد من القديم ، ثم لعلهم يجدون فيها جديداً ينفعهم . ومن الألعاب التى مارسوها : ألعاب سباق مختلفة ، ومحاولة فريق شد فريق آخر لإلقائه على الأرض الخ . . أما الفتيات فكن يفضلن ألعاب المهارة على ألعاب القوى ، كأن يتبادلن الكرات راكبات ظهور زميلاتهن ، وكان ينبغى لكل شابة أن تجيد الرقص. وكن يربطن فى آخر ضفائرهن كرات ويمسكن المرآة بأيديهن — ويقفزن ويستدرن ويلتوين على تصفيق المتفرجين الإيقاعى، كل هذا كان من شأنه أن ينشىء جيلا من الشباب قويا شجاعاً سريع الحركة مفتول العضلات نحيف الخصر ، وذلك هو الشباب الذى أعجب العالم بشكله المصور على النقوش القديمة .

النظافة الشخصية :

لقد أعجب السياح الإغريقيون بمختلف مظاهر نظافة المصريين مثل عادة غسل أوانى الشرب واستعمال المليّنات ، والمقيئات شهريا . ولا شك فى أن للدين والكهنة فضلاً كبيراً فى تعليم الشعب النظافة . وبعد أن أشفق هيرودوت على الكهنة من تفانيهم فى النظافة قال : إنهم يجدون فى مناصبهم بالضرورة ما يعوضهم عن هذه القيود .

ولم يعرف المصريون الصابون (اخترع فيما بعد) بل كانوا يستعملون فى الغسيل الصودا أو الرماد أو النطرون ، وهى مواد لا بأس بها حيث أنها تذيب الدهنيات . وكانوا يدهنون البشرة بالزيوت والروائح لصيانتها ، وبزيت الحلبة للتخلص من شوائب الشيخوخة . وكانوا جميعاً — رجالاً ونساء — يتخلصون مما ينمو على أجسامهم من شعر إما بالنتف أو بالحلاقة . . أما الكهنة فكانوا يحلقون شعر رءوسهم ووجوههم ويلبسون الشعر المستعار واللحى الصناعية .

ومن الأدهان التى كانت تستعمل لمنع شيب الشعر دم الثيران السوداء الصغيرة ودهن الثعابين السوداء ورحم القط وبيض

الغراب ؛ ولشفاء الصلع: دهن الأسد وفرس البحر والتمساح والقط وشوك القنفذ المحروق وقدم الكلب وحافر الحمار . ويلاحظ أن استعمال أدهان الحيوانات السوداء لإعادة لون الشعر، وكذلك دهن الأسد وفرس البحر — اللذين يتمتعان بلبدة غزيرة لإعادة الشعر إلى الصلع — مبنيان على القياس، ومع ذلك فليس من شك فى أن نتائج علاجاتنا الحالية لا تفوق ما كانت تؤديها تلك العلاجات التى نهزأ بها .

وكانوا يعنون برائحة لبسهم وأجسامهم وأفواههم ، فكانوا يبخرون ثيابهم بمثل هذه التبخيرة التى وردت فى لفافة إبرس : لبان جاف ، بذر الصنوبر ، صمغ التربنت، قرفة ، بذر الشمام ، غاب فينيقية ، وهذه كلها تصحن وتوضع على النار . وكان هذا المزيج يخلط بالعسل وتركب منه أقراص للاستحلاب فى الفم ، أو يوضع على حجر ساخن لتبخير المنازل .

ومن الوصفات التى كانت تستعمل للتخلص من البراغيث والذباب والبعوض والسحالى والثعابين مزيج من النطرون والفحم ونبات قوى الرائحة اسمه (بيت) يرش به المنزل . وكان هذا ولاشك علاجاً ناجعا للتخلص من تلك الآفات .

وهناك وصفات أخـــرى لصيانة المنازل تبدو لنا عجيبة ، منها استعمال شحم القطط لإبعاد الفيران ، وما نشك فى أن هذه الفكرة مردها إلى أن الفيران لخشيتها القطط تنفر من شحمها ولو كانت ميتة،ومنها وضع حيوان (سمر) على النار حتى يموت اقتل السحالى وبالعكس قتل السحالى بالنار للتخلص من الحيوان الذى يسمى (سمـــر) ، الأمر الذى يفرض تجاوباً خفيا بين الحيوانين ؛ ومنها كذلك إدخال سمكة (بلطية) مجففة فى جحور الثعابين لمنعها عن الخروج .. وقد وردت كل هذه الوصفات فى لفافة إبرس ولا أصل لها من الوجهة الواقعية .

داخل المنازل :

استطرد هيرودوت فى عجبه من المصريين فقال أيضا : « إن المصريين يختلفون فى عاداتهم عن الشعوب الأخرى . . . فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم بينما يقضون حاجتهم داخلها . » . وليس من شك فى أن هذا القول يدل على وجود مراحيض داخل المنازل .

ومما يؤكـــد هذا استكشاف نماذج مصغرة كانت توضع مع ملحقاتها فى القبور ليعمرها المتوفون بعد وفاتهم ، فقد

وجد فى بعضها مراحيض مكونة من مربعين منحرفين قاعدتاهما إلى أعلى وبينهما وعاء ممتلىء إلى نصفه بالرمل . وشكل هذا المرحاض لا يختلف عما وجد عليه طوال الحضارة المصرية .

وقد ذكرت رواية — ترجع إلى عهد المملكة الوسطى — وجود حمام فى بيت أحد الأمراء الذين عاصروا سنوسرت ، ولكن لم يعثر على أى أثر لحمامات أو مراحيض فى أول مدينة مصرية قديمة كشفت كاملة وهى كاهون (اللاهون) التى بناها فى الفيوم سنوسرت (١٩٠٦ — ١٨٨٧ ق٠م)

أما المملكة الجديدة فإننا نجد فى بيوت مدينة تل العمارنة (اختاتن ، ومعناها «أفق قرص الشمس») تحسيناً بيناً فى الجهاز الصحى . ويرجع الفضل فى ذلك إلى مؤسس هذه المدينة « إختاتون » الفرعون المجدد فى الفن والدين والفلسفة الذى امتاز بالحساسية المرهفة . . وقد كشف فيها بورخارت أربعة أنواع من المراحيض . ووجدت أيضا مقاعد مفتوحة من أعلى قيل عنها إنها مراحيض قابلة للنقل .

ومن العصر نفسه وجدت أمثلة لعدة حمامات ، إلا أنها كلها مبنية لصب الماء من أعلى فوق الرأس ، لا للانغماس فى حوضها

كما كان يفعل الإغريق . ولا شك فى أن الطريقة الأولى أصح من الثانية . وكانت جدرانها فى منازل الطبقات الغنية تغطى بالحجر أو الخزف . وكانت تزود فى أسفلها بخزانات ينساب إليها الماء الملوث . . وبلغت ذروة الترف فى عهد رمسيس الثالث الذى بنى معبد مدينة هابو ، ثم هدمه وشيد على أنقاضه معبداً آخر مزوداً بعدد كبير من الحمامات ليستخدمها هو وحريمه .

وأظهرت حفريات بورخارت فى معبد ساحورع (الأسرة الخامسة) ٢٫٧٠٠ ق . م . — سقارة — أحواضاً من الحجر المبطن بالمعدن ، فى كل حجرة وفى كل ممر . وفى أسفل كل حوض منها فتحة تسدها سدادة من المعدن مربوطة بسلسلة . وتتصل فتحات الأحواض بشبكة من الأنابيب الجوفية طولها مجتمعة (أربعمائة متر) مصنوعة من صفائح النحاس المطروقة والمطوية على شكل إسطوانى مراعى فيها تراكب الأطراف ووضع الشفتين إلى أعلى ، وتنتهى الشبكة إلى الوادى . ولكن هذا النظام يبدو فريداً . وهو على كل حال لم يعمم فيما بعد ، فإن مياه الانسياب من المساكن كانت تتسرب فى مجار مفتوحة فى وسط الشوارع ، كما كانت الحال فى أوربا إلى عهد قريب . وكانت أحياناً تجمع فى أوعية خارج المنازل .

أما عهد البطالمة ، فإنه ينتسب إلى حضارة الإغريق أكثر من انتسابه إلى الفراعنة، وقد عم فيه استعمال المراحيض وانتشار الحمامات العامة المزودة بالماء الساخن والبخار حتى وصل عددها فى الإسكندرية وحدها عند فتح العرب إلى ٤٠٠٠ .



الدفن والتحنيط

الدفن

حتمت العقائد الدينية السائدة بين المصريين القدماء فى عهد الأسر حفظ جسد الميت وصيانته وإبقاءه على شكله قبل الوفاة ، حتى يتسنى للروح « با » أن تتردد عليه فى قبره ، وأن تعود إلى الحياة الحسية . وأقدم وسيلة للدفن — فى العصر الحجرى الحديث — لم تزد على وضع الجثة فى الأرض ، ولم يعثر على جثث أو قبور مبنية ترجع إلى هـذا العصر . وطبيعة مناخ مصر هى التى أوحت بهذه الوسيلة ، فالجو حار . وإذا دفنت الجثة فى طبقة رعل ذى مسام أعلى من منسوب الميـاه الجوفية ، جفت وتطهرت من الميكروبات . ثم إنها إن ظلت على جفافها قدر لها أن تبقى إلى الأبد ، لا يصيبها التحلل ، ولا يدركها البلى . ومن هنا فقد اكتفى فى أول الأمر — قبل عهد الأسر — بمواراة الجثة التراب : إما عارية ، وإما محاطة بجلد حيوان أو بكفن رخو . وفى عهد الأسر دفنت جثث الملوك والأغنياء فى مقابر عميقة بطنت جدرانها بالخشب أو الطـــين

الجفف ... وتغير الكفن فأصبح مكوناً من مجموعة من الأربطة المحكمة، وأخذ كل من المقبرة والكفن يتطور إلى أن وصلت أساليب الدفن إلى ذروة الكمال والتعقيد فى عهد توت عنخ آمون الذى حنطت جثته ثم لفت بست عشرة طبقة من الأربطة المصنوعة من الكتان ووضعت فى صندوق محفوظ فى صندوقين آخرين وتابوت من الحجر وأربعة هياكل . ولم يكن بد من أن يؤدى هذا التطور فى طرق التكفين فضلا عما وصلت إليه المقابر من السعة والعمق إلى تأخير جفاف الجثة . . ومن ثم إلى احتمال تعفنها وإلى ضرورة ابتكار حيل جديدة لضمان صيانة الجثة . . ومن هنا نشأت وسائل التحنيط .

التحنيط

ليس فى الاستطاعة تحديد الوقت الذى بدأ فيه قدماء المصريين تحنيط موتاهم . وأول مثال لهذا عثر عليه فى مقبرة الملكة « حوتب — حرس » والدة خوفو وظلت عادة التحنيط متبعة فى مصر منذ ذلك العهد النائى حتى بداية العهد المسيحى ، إلا أنها كانت مقصورة فى أول عهدها على الملوك والكهنة ووجهاء القوم ولم تنتشر وتتغلغل إلى الطبقات الفقيرة إلا بعد وقت طويل .

وكانت أساليب حفظ الجثث فى البداية بسيطة . ثم تطورت وتعقدت فصارت الأحشاء تنتزع من الجثة وتحفظ فى أوعية خاصة (وهى التى أطلق عليها « الأوانى الكانوبية ») .. ومافتئت هذه الأساليب تتطور وتتطور ، حتى بلغت أعلى درجات الكمال فى عهد الأسرة الثامنة عشرة ، ومما يؤسف له أنه لم يرد ذكر الطرق التى كانت متبعة فى أى مؤلف معاصر ، اللهم إلا فى لفافة أبيس التى ترجع إلى الأسرة السادسة والعشرين أى إلى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد والتى تصف تحنيط عجل أبيس ... وفى وثيقة أخرى — ترجع إلى العهد الوسيط الأول أو الثانى — أشير إلى فن التحنيط السرى . ولقد وصف هيرودوت فى القرن الخامس ق . م . وتلاه فى ذلك ديودورس فى القرن الأول الميلادى طقوس التحنيط بشىء من التفصيل ، الأمر الذى ساعد العلماء فى مهمتهم عندما عمدوا إلى فحص الجثث ودراسة محتوياتها ومحاولة الوقوف على المواد التى استعملت فى هذه العملية الدقيقة .

وإذا كانت طرق التحنيط قد اختلفت على مر العصور ، فى خلال تاريخ مصر الطويل كما يتضح ذلك من جثث العهود المتعاقبة ، فإن هناك — مع ذلك — طريقة مثالية يمكن أن توصف على الوجه التالى :

أولا : تفرغ الجمجمة من المخ بوساطة « سيخ » طرفه ملتو كالشص (السنارة) ، يدخل فى الأنف ، وتثقب به قاعدة الجمجمة ، ثم يهرس بها المخ بحيث يصبح كالعجينة ويمكن سحبه عن الطريق نفسه أى عن طريق الأنف . ويبدو أن هذه الخطوة لم يبدأ فى استعمالها إلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة . وكان تجويف الجمجمة يترك بعد ذلك فارغاً ، أو يملأ بالصمغ أو بخليط من الصمغ والشاش . أما فى عهد البطالمة فكان يستعاض عن هذه المواد بقطران الخشب .

ثانيا : تفتح البطن من الجانب بسكين من حجر الشست ، وتنزع أحشاء البطن والصدر ماعدا الكليتين والقلب ، ثم يترك هذان التجويفان فارغين ، أو يملآن أحياناً على الوجه الذى كانت تحشى به الجمجمة . وفى العهود المتأخرة كانت الأحشاء تعاد إلى البطن بعد لفها . وقد وجـــدت بعض موميات لأشخاص لا يمكن القول بأن ذويها ضنوا بالمال فى سبيل تحنيطها — تحتوى على كل أحشائها ، كما عثر على موميات أخرى ببلاد النوبة خاوية البطن ولا يظهر عليها أى أثر لفتح أجرى فيها .

ثالثاً : تحاك فتحة البطن . وكان ذلك فى حالات قليلة ، أما فى معظم الحالات فكانت تغلق بصب الصمغ المصهور عليها . كما

أنه كان يوضع شمع النحل فى فتحات الأذنين والعينين والأنف والفم ، وكذلك على فتحة البطن .

رابعا : كانت الأحشاء تنظف فى نبيذ النخل والعقاقير العطرية ، ثم تحشى بالمر والأنيسون والبصل ، وتوضع بعد ذلك فى الأوانى الكانوبية ، أو تعاد — فى حالات نادرة — إلى البطن

خامساً : التجفيف، وهو العملية الأساسية للتحنيط التى تكفل للجثة البقاء وعدم التحلل . ولقد ظن البعض أن المصريين كانوا يجففون الجثث بوساطة الحرارة أو الجير الحى ، إلا أننا نستبعد هذه الطرق نظراً لافتقارنا إلى أدلة ثابتة فى هذا الصدد .

وقد استعمل النطرون للتجفيف وعثر عليه بكثرة فى أوان عديدة ، وفى مخلفات التحنيط ، وفى بعض الأوانى الكانوبية ، وفى القبور ، وداخل تجويف بعض الموميات ، وفى أنسجتها ، وضمن المواد الدهنية المستخلصة منها ، وكذلك فى الصموغ وغيرها مما كانت تحشى به الأحشاء ، وعلى أربطة التيل . هذا فضلا عن أنه وجدت رواسب منه على بعض الآلات والأسرة والمناضد التى استخدمت فى التحنيط .

ويروى هيرودوت أن الجثة كانت توضع فى النطرون سبعين يوما ... وقد ظن فى بادئ الأمر أنها كانت تغمس فى محلول

منه ، إلا أن المرجح — حسب التجارب التى أجراها لوكاس على الطيور — أنها كانت توضع فى نطرون جاف ، إذ أن الملح العادى يحدث فيها تآكلا سريعا،وأن فعل المحاليل مؤقت وسرعان ماتصاب الجثة بالتحلل بعد إخراجها منها ..

سادساً : وبعد أن يتم تجفيف الجثة ، كانت تنزع من النطرون الجاف ثم تغسل بمحلول منه ، وتدهن بالزيوت العطرية ، وكثيراً ما كانت تدهن الأصابع بالحنة وتملأ التجاويف الناجمة عن التحلل فى العضلات أو الأعضاء فى أثناء التجفيف بالكتان والرمل ونشارة الخشب ، وتدهن الجثة بالصمغ .

سابعا : وتبيت مرحلة التغليف ... كانت الجثة تلف بلفافات من الكتان المشبع بالأصماغ .

وكانت هذه الطريقة الباهظة النفقات تتبع لتحنيط جثث الأثرياء .. أما عن جثث الطبقات المتوسطة فإن هيرودوت يروى أن المحنطين كانوا يكتفون — للتقليل من النفقات — بحقن الجثة من الشرج بزيت أشجار الأرز وبإغلاق الفتحة المترتبة على هذا الحقن بالخياطة طوال فترة التجفيف بالنطرون ، فإذا ماانقضت هذه الفترة فتح الشرج من جديد حاملا معه ما أذابه أو فتته من الأحشاء والفضلات ، إلى حد أنه كثيرا ما كان

لا يبقى من الجثة سوى العظام والجلد . وهذه الطريقة هى التى جاءنا وصفها فى لفافة أبيس الآنفة الذكر .

وفيما يتصل بجثث الفقراء كان يستعاض عن زيت أشجار الأرز — فى تحنيطها — بزيت بذور الفجل . وقد قال بلينوس إن استخدام هذا الزيت فى هذا المضمار سبب غلاء الفجل فى ذلك الوقت .



حكم التاريخ

وفى الختام يجدر بنا أن نزن قيمة الحكم الذى نصدره على طب قدماء المصريين ، فإن الأصول التى يصح أن نعتمد عليها فى هـذا الحكم لا تربى على ثمانى ورقات مصنفة من أصول مهلهلة ، وصلت إلى ناقليها ناقصة مشوهة . استنسخها أولئك على علاتها .

ولا يحق لنا أن نـكون كمن يصف مجرى النيـــل نقلا عن مشاهدات سطحية لسائح وسط مجراه ، مع جهلنا بما يعه من ثلوج أواسط إفريقية وبحيراتها ، ومنبعه الجائر فى أوجاندا ، وما التقى به من روافد فى السودان والحبشة ، وماخسره بالتبخر فى مستنقعات منطقة السدود ، ثم ماحبا به واديه من نعم لا حصر لها .

ثم ، هل كان هـذا المزيج الغريب من الطب والشعوذة مجرد خلط من نساخين وضعوا جنباً إلى جنب علماً تجريبيا منطقيا موجها إلى علماء من الأطباء كالذى جاء فى لفافة إدوين سميث — ودجلا وسحرا موجهين إلى جمهور ساذج لم يفتأ منذ القدم يرتاح إلى هذا الضرب من الطب ، كالذى جاء فى لفافة لندن . أم إن الطب كان حقا يمارس على النحو الذى يبدو فى لفافة إبرس ؟

لا شك أن المستقبل سوف يكشف عن أسرار ما تزال كامنة فى أرض مصر الطيبة الضنينة ، أسرار تتناول أصول الطب المصرى والحضارة المصرية ، وكيان مـــدارس الطب (بيوت الحياة) ووسائل التعليم فيها ، وعلاقة طب مصر بطب البلاد المجاورة والحضارات التى قد تكون سبقتها ، وانتقال العلوم الطبية من مصر إلى اليونان ، وضخامة الدّين الذى على الإغريق لأساتذتهم المصريين . نعم لم يعد مجال للشك فى أن هــذا الدين بالغ العظم ، وقد أشرنا إلى بعض ما اقتبسه أبقراط وغيره من مصر ، إلا أن الكتاب الغربيين لقلة معلوماتهم عن مصر ، ولصعوبة الوصول إليها ، مع سعة دراساتهم للحضارة الإغريقية جعلوا من تلك الأخيرة أساسا لما وصلوا إليه من مدنية ، جاهلين أو متجاهلين الأصول الحقيقية للكنوز التى خلفها اليونان للعالم بعد ذلك .

ولذا فإن المصريين يستحقون إعجاب الجميع وتقديرهم ، وفى ذمة العالم أن يعترف بفضلهم عليه ، ذلك لأنهم — مع التحفظات التى أبديناها — كانوا أول من حاول التخلص من القيود التى ربط بها السحرة والكهنة الفكر البشرى ، وأيا كان حكمنا على درجة نجاحهم فى تلك المحاولة فإن جهودهم هذا مهد السبيل لمن تبعهم ، من إغريق أو غيرهم ، نحو التحرر والمعرفة .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها للآن :

١ ــ الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد

٢ ــ الاشتراكية والشيوعية ...... للأستاذ على أدهم

٣ ــ الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي للدكتور عبدالحميد يونس

٤ ــ قصة التطور .... للدكتور أنور عبدالعليم

٥ ــ طب وسحر .... للدكتور بول غليونجى

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارئ أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه .

الكتاب القادم

فجر القصة المصرية

للأستاذ يحيى حقى

مطابع دار القلم بالقاهرة